

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثاني

الحزب الخامس والعشرون

الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م



التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى
الحزب الخامس والعشرون

الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ — ١٩٨١ م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨١

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
محمد حمدى السعيد

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٠/١٦٧٩

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
٢٠٠٠١-١٩٨٠-١٧/٨

(* وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾)

التفسير

٥٣ - (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

قلنا فى آخر الجزء السابق يحتمل أن تكون هذه الآية والتى قبلها من قول يوسف عليه السلام أو من قول امرأة العزيز ، وقد شرحنا الآية السابقة على الوجهين . وفيما يلى شرح هذه الآية عليهما :

إذا كانت هذه الآية من قول يوسف يكون معناها : وما أُبرئُ نفسى عن السوء والخطيئة بغير معونة من الله سبحانه ولا أُسنِد إليها هذه الفضيلة باعتبار طبعها من غير توفيق من الله تعالى ، فإن النفس البشرية فى حد ذاتها لداعية إلى السوء ، مائلة إلى الشهوات ، إلا ما رحم ربِّى من النفوس بعصمتها من الوقوع فى المهالك ، وفى جملتها نفسى ، إن ربى لعظيم الغفران لما يحدث من النفوس بموجب طبعها ، عظيم الرحمة لها بعصمتها من الخطيئة التى تسوقها إليها بشريتها ، وإنما يقول ذلك يوسف - عليه السلام - هضمًا لنفسه الكريمة البريئة عن كل سوء ، وإبعادًا لها عن الإعجاب بما وصلت إليه من كمال النزاهة .

وإذا كانت هذه الآية من كلام امرأة العزيز يكون معناها : وما أُبرئُ نفسى مع ذلك من الخيانة ، حيث قلت فى حق يوسف ما قلت ، وفعلت به ما فعلت ، إنَّ كل نفس لأمارة بالسوء إلا نفسًا رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف عليه السلام ، إن ربى غفور لمن استغفر للذنبه ، رحيم له بقبول استغفاره .

(وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾).

المفردات :

(أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى) : أجعله خالصًا لى أى خاصًا بى .

(مَكِينٌ أَمِينٌ) : ذو مكانة رفيعة مؤتمن على كل شىء .

(حَفِيظٌ عَلِيمٌ) : قوى الحفظ كثير العلم .

التفسير

٥٤ـ (وَقَالَ الْمَلِكُ ائتونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى) :

ولما ثبت للملك براءة يوسف مما نسبته امرأة العزيز إليه ، وتحقق أنه أمين لايخونه بالغيب ، وأدرك صبره وجلده وإيثاره السجن على ما تدعوه إليه امرأة العزيز وصواحباتها وعرف مبالغته فى حماية نفسه من قالة السوء ، بطلبه التحقيق مع أولئك النسوة قبل خروجه من السجن ليتلقاه الملك نظيفًا محكومًا ببراءته ، بدلا من أن يقابله قبل ذلك متهمًا عفا عنه الملك لأنه أوّل رؤياه لا لأنه برىء ـ ولمَّا ثبت للملك كل ذلك ـ قال الملك لرجاله : أحضروا إلىَّ يوسف أتخذه خالصًا لنفسى فى تدبير أمور مملكتى وليكون صاحب مكانة خاصة عندى .

وإذا نظرت إلى أسلوب الملك فى طلب إحضار يوسف إليه فإنك تراه أولًا بعد أن علم بتأويله رؤياه قال : (ائْتُونِى بِهِ) ولم يزد على ذلك ، فلما ظهر إباؤه ووضحت أمانته وعفته فى قصة امرأة العزيز ، عظمت منزلته عنده ، فطلبه ليكون ذا مكانة ممتازة لديه

خاصة به، بحيث لا يكون لأحد سلطان عليه سواه، وذلك بقوله :

(ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى) . وهكذا يرفع الله درجات أهل العلم والأمانة والعفة .

(فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) :

أى فأتَوْا بيوسف فلما كلم يوسفُ الملكَ بما يناسب لقاء الملوك الذين يَرُدون الحق لأهله وينصفون المظلوم ، قال له الملك إنك يا يوسف عندنا ابتداء من هذا اليوم ذو مكانة رفيعة ومنزلة ممتازة ، وإنك أمين على كل شىء لدينا ، بعد ما عرفناه فيك من العلم والشرف والأمانة .

وبعد أن اختار الملك يوسف مستشارًا له فيما هو مقبل عليه من أمره كله ، وأعلمه بأنه عنده ذو مكانة ممتازة ابتداء من هذا اليوم الذى يحدثه فيه ، وأنه أمين عنده أمانة مطلقة ليست لها حدود ، وبعد أن علم يوسف ما تحتاج إليه أرض مصر وأهلها فى السنين السبع الخصيبة والسنين السبع العجاف من حسن التدبير والحزم والحفظ والعلم والأمانة وأن ذلك كله قد منَّ الله عليه به — بعد أن حدث كل ذلك — عرض يوسف على الملك أن يعهد إليه بإدارة البلاد وذلك ما حكاه الله بقوله :

٥٥ — (قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ) :

أى اجعلنى واليا على مصادر خيرات أرض مصر ، زراعة وحصادا ، وإيرادا وصرفا ، وبيعا وخزنا ، وتدبيرا ، فإنى حفيظ لها من التبذير والتقتير والإفراط والتفريط ، عليم بوجوه التصرف فيها والحفظ لها ، وقد كان يوسف فى كل ذلك أقدر من غيره .

وفى الآية دليل على جواز طلب الولاية ، إذا كان طالبها قادرًا على نفع العباد وإقامة العدل بينهم وإجراء أحكام الشريعة فيهم ، والبعد عن التلوث بمظالم الحكام ومآثمهم .

وأما ما ورد فى الصحيح من النهى عن طلب الولاية فمحمول على ما إذا كان طالبها لا يقدر على القيام بتبعاتها ، والنجاة من مآثمها .

ومن ذلك ما أخرجه مسلم عن أبى بريدة قال : قال أبو موسى : أقبلتُ إلى النبى صلى الله عليه وسلم ومعى رجلان من الأشعريين أحدهما عن يمينى والآخر عن يسارى ، فكلاهما سأل العملَ والنبىُّ صلى الله عليه وسلم يَسْتَاكُ فقال : « ما تقول يا أبا موسى —

أو يا عبد الله بن قيس ؟ قال : قلت والذى بعثك بالحق ما أطلعانى على ما فى أنفسهما ، وما شعرت أنهما يطلبان العمل ـ قال ـ وكأنى أنظر إلى سواكه تحت شفته وقد قَلَصَتْ[1] فقال : لَنْ أَوْ لا نَسْتَعْمِلُ على عملنا مَنْ أراده » وذكر الحديث . ومن ذلك أيضًا ما رواه مسلم عن عبد الرحمن بن سَمُرة قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أُعطِيتَهَا عن مسأَلة وُكِلْتَ إليها ، وإن أُعطِيتَهَا عن غير مسأَلة أُعِنْتَ عليها » . وقد استفيد من الآية أيضًا إباحة طلب الرجل القادر الفاضل أن يعمل للرجل الكافر ، بشرط أن لايكون عمله لديه وفق شهواته وفجوره ، وإلا فلايجوز .

ويستفاد منها أيضًا أنه لو علم إنسان أنه لا يقوم سواه بمصالح الناس فى عدل وكفاية سواءٌ كان ذلك فى ولاية أو قضاء أو نحوهما ، وجب عليه أن يطلب ذلك ، ويخبر بصفاته التى تجعله صالحا للقيام بها ، من العلم والحفظ والكفاية كما قال يوسف :

(اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ) :

فقد سأَلها بالحفظ والعلم لا بالنسب وغيره ، فإن كان هناك من يقوم بها ويصلح لها سواه ، وعلم بذلك فالأَولى أن لايطلب لقوله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن سمرة : « لاتسأَل الإمارة » الحديث .

(وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾)

(١) أى انقبضت .

المفـردات :

(مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ) : جعلنا له فى أرض مصر مكانة رفيعة أقدرناه بها على ما يريد .

(يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ) : ينزل من بلادها ومن أمورها وقلوب أهلها حيث يشاء

(نُصِيبُ برَحْمَتِنَا) : نجود بنعمتنا .

التفسير

٥٦ ـ (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ) :

ومثل ذلك التمكين فى قلب الملك ، مكَّنَّا ليوسف فى أرض مصر ، حيث ثبتنا فيها مكانته العظيمة ، وأقدرناه فيها على ما يريد فى جميع نواحيها ، فقد شملها سلطانه، فكأنها منزلهُ يتصرف فيها كما يتصرف الرجل فى منزله ومكانه ، وكان ذلك بعدل وحكمة . روى أن الملك لما فوض أمر مصر إلى يوسف تلطف بالناس ، وجعل يدعوهم إلى الإسلام حتى آمنوا ، وأقام فيهم العدل فأحبه الناس ، وكانت له بذلك مكانة رفيعة بينهم .

(نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) :

نصل بنعمتنا مَنْ نشاءُ ولا نفوت على المحسنين شيئًا من أجرهم ، بل نوفيه بكماله لهم ، وكذلك فعلنا مع يوسف حين أحسن ، فقد كافأناه بسلطانه العظيم على مصر وأهلها مع كامل المحبة والرضا .

٥٧ ـ (وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) :

أى وإن أجر المحسنين فى الآخرة لأعظم من أجرهم فى الدنيا ، وقد عبر عنهم بالذين كانوا يتقون ، للإيذان بأن الإحسان الذى يستحق صاحبه الثواب الأخروى ، هو الذى كان أساسه الإيمان والتقوى .

٥٨ - (وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ) :

كان للقحط الذى حل بمصر فى السنين العجاف ، أثره على أرض كنعان بالشام فبعث يعقوب عليه السلام أولاده لشراء قمح وطعام من مصر ، بعد أن ذاع أمر يوسف فى الآفاق ، حيث عرفوا أنه اختزن الأقوات للمجاعة وأنه يوزعها بعدل ورحمة ، وكان - كما قيل يعطى الطعام بمقدار معين لكل فرد - كما كان يشرف على التوزيع بنفسه ضمانًا للعدالة والدقة . وجاء إخوة يوسف امتثالًا لأمر أبيهم ، فدخلوا عليه ليطلبوا منه الطعام ، فعرفهم يوسف ، ولكنهم لم يعرفوه ، لأنهم ألقوه فى الجبِّ ثمَّ باعوهُ صبيًّا [1] ، ولم يتوهَّموا أنَّهُ بعد العبوديَّةِ يصير إلى هذا السُّلطان ، بالإضافةِ إلى أنه فارقهم منذ مدَّةٍ طويلة ، قيل : إنَّها كانت أربعين سنةً ، وقد تزيَّا بزىِّ أهل مصر ، وعليه مظاهر السُّلطان .

(وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ) : أعدَّ لهم حاجتهم من الطعام الذى حضروا لجلبه من مصر فى السنين العجاف ، والجهاز فى اللغة ما يحتاج إليه المسافر والعروس والميت وتجهيزه إحضاره . وقد أجمع القراء على فتح الجيم فى الآية الكريمة ، ويجوز فيها الكسر لغة وإن كان الفتح أشهر .

(١) على ماجاء بإحدى الروايات ، انظر ما كتبناه شرحاً لقوله تعالى : (وشروه بثمن بخس) الخ . . .

(خَيْرُ الْمُنزِلِينَ) : أى خير المضيفين - مأخوذ من النُّزُل وهو الطعام الذى يقدم للضيوف الَّذِين ينزلون . أو خَيْرُ مَن يُنْزِلُونَ الناس فى منازلهم مأخوذ من المنزل بِجَهَازِهِمْ وهو الدار . (سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ) : سنطلبه من أبيه ليرسله معنا .

التفسير

٥٩ - (وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ) :

بينت الآية السابقة أن إخوة يوسف جاءوه للحصول على الطعام زمن المجاعة ، وأن يوسف عرفهم ولكنهم لم يعرفوه ، لأنهم لم يخطر ببالهم أن من ألقوه فى الجب يؤول أمره إلى حكم مصر والسلطان على أهلها وأرزاقها .

وجاءت هذه الآية لتبين أول الخطوات التى اتخذها يوسف لإحضار أسرته إليه ، وهى طلبه من إخوته هؤلاء أن يحضروا أخًا لهم من أبيهم .

ويظهر أنه جرى من الحديث بينه وبينهم ما جعلهم يصرحون بأن لهم أخًا من أبيهم لم يحضروه معهم ، حتى يكون مجرى الحديث هو الذى حمل يوسف ظاهرًا على أن يطلبه بالذات ، حتى لايثير انتباههم إلى السبب الحقيقى فى طلبه .

والمعنى : ولمَّا جهَّز يوسف إخوته بالطعام الذى طلبوه من الحَبِّ الذى استبقاه فى سنابله لزمن المجاعة ، قال لهم ائتونى بأخ لكم من أبيكم ليتبين صدقكم فى طلب حمل زائد على أحمالكم من أجله .

(أَلَا تَرَوْنَ أَنِّى أُوفِى الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ) :

أى ألا تنظرون أننى أعطى الكيل وافيًا تامًّا لكم ولكل الناس بالعدل ، وأنا أفضلُ المضيفين ، ومن أجل ذلك لا أحب أن يكذب عَلَىَّ أحد بأخذ مالا يستحقه ، حتى لايحرم رب أسرة آخر من حقه فى الطعام ، ولهذا طلبت أن أرى أخاكم بنيامين الذى طلبتم له الطعام لكى أتحقق من صدقكم .

٦٠ - (فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُون) :

أى فإن لم تأتونى بأخ لكم من أبيكم ، فلا طعام أكيله لكم مستقبلا ، ولا تقربون منى بنزولكم عندى فى ضيافتى ، يريد بذلك تهديدهم بالحرمان من الطعام وحسن الضيافة بعد هذه المرَّة ، كلما احتاجوا إليه فى السنين العجاف ما لم يأتوه بأخيهم من أبيهم .

٦١ - (قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ) :

أثَّر فيهم تهديد يوسف لهم بالحرمان من الطعام مستقبلا فقالوا له : سنحاول مع أبيه يعقوب ونحتال فى أخذه منه ونجتهد فى ذلك - يشيرون بذلك إلى عِزَّة المطلب وصعوبة مناله .

ومع صعوبته وَعَدُوا يوسف بتحقيقه بقولهم له : « وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ » مرضاةً له وتفويتًا لما اعتقدوا أنه تسرب إلى ذهنه من أنهم كاذبون ، فإن قيل إن طلب يوسف لبنيامين ، سوف يدخل الحزن على أبيه فما حكمة ذلك ؟ وقد أجيب عن ذلك بعدة أجوبة ، منها : أن ذلك كان بأمر من الله ابتلاء ليعقوب ، ليعظم ثوابه ولكى تتضاعف مسرته برجوع ولديه ، إلى آخر ما قيل فى ذلك .

(وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾)

المفـردات :

(فِتْيَانِهِ) : غلمانه الكيالين ؛ جمع فتى .

(بِضَاعَتَهُمْ) : ما جاءُوا به من المتاع ليشتروا به الطعام .

(فِي رِحَالِهِمْ) : فى أوعيتهم ، قال ابن الأنبارى : يقال للوعاء رحل وللبيت رحل .(انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ) : رجعوا إليهم .

التفسير

٦٢ - (وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِم لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) :

كان إخوة يوسف يريدون شراء القمح مُبَادَلَةً ببضائع أُخرى جاءُوا بها معهم من الشام[1] ، وكان يوسف يريد أن يعطيهم القمح دون مقابل تفضلا عليهم، وخوفًا من أن لايكون عند أبيه ما يرجعون به مرة أُخرى ليشتروا به طعامًا آخر غير الذى أخذوه فى هذه المرة ، ولكى يكون ذلك التفضل وسيلة لتحقيق مطلبه من حضور بنيامين معهم عند حضورهم للامتيار[2] مرة أخرى ولهذا قال يوسف لغلمانه وعماله الموكول إليهم بَيْعُ القمح وكيلُه وقَبْضُ الثمن - قال لهم - : اجعلوا بضاعتهم التى جاءُوا بها ليجعلوها ثمنًا للطعام - اجعلوها - فى أوعيتهم سِرًّا ولا تشعروهم أننى نزلت لهم عنها ، وأننى تفضلت عليهم بالقمح دون ثمن ، لعلهم يعرفون هذه المكرمة ويقدرونها قدرها حين يرجعون إلى أهلهم ويفاجؤون بها فى متاعهم ،لعلهم يعودون إلىَّ بأخيهم الذى طلبته ، فإن التفضل عليهم بإعطاء البدلين ولا سيما عند ندرة البضاعة من أقوى الدواعى إلى الرجوع .

---

(١) روى عن ابن عباس أنها كانت نعالا وأدما - أى جلداً - وقيل إنها كانت دراهم ودنانير .

(٢) الامتيار : طلب الطعام وجلبه .

٦٣ ـ (فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) :

أى فلما عادوا إلى أبيهم من مصر بمتاعهم ، قالوا قبل أن يشتغلوا بفتح المتاع : يا أبانا مَنَعَ مِنَّا العزيزُ أن نكتال الطعام من عنده بعد هذه المرة حتى نأتيه بأخ لنا من أبينا ، ولما حكوا لأبيهم القصة التى اقتضت أن يطلب منهم العزيز هذا الطلب قالوا لأبيهم : فأرسل معنا أخانا بنيامين إلى مصر نكتل بسببه الطعام كما قال العزيز ، وإنا له لحافظون من أن يصيبه مكروه .

٦٤ ـ (قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ) :

أى لم يحدث منكم ما يقتضى الاطمئنان على وعودكم ، فقد وعدتمونى من قبل بالمحافظة على أخيه يوسف وجئتمونى بدونه وزعمتم أن الذئب أكله : فهل آمنكم على بنيامين إلا بالصورة التى أمنتكم بها على أخيه ، دون أن يتغير حالكم ، ويدعونى إلى الاطمئنان لوعودكم .

(فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) :

أى فالله خير منكم ومن سواكم حافظًا ، وهو أرحم الراحمين ، فلذا أكِل أمر حفظه إلى فضله ورحمته سبحانه ، ولا أعتمد فى ذلك عليكم فقد جربتكم فما وجدْت فيكم وفاءً بوعد ، ولا حفظًا لعهد .

(وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾)

المفردات :

(وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ) : المقصود بمتاعهم؛ الأوعية التي فيها طعامهم وبضاعتهم وهي المعبر عنها سابقًا برحالهم في قول يوسف: «اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ» .

(مَا نَبْغِي) : أيُّ شيء نبغيه ونطلبه أكثر من كرم العزيز برده الثمن إلينا وتوفيته الكيل لنا ؟ .

(نَمِيرُ أَهْلَنَا) : أي نجلب لهم الميرَةَ وهي الطعام ، من المَيْر وهو جلب الطعام[1]

(كَيْلَ بَعِيرٍ) : أي طعامًا مكيلا مقداره حمل بعير لأخينا بنيامين.

(كَيْلٌ يَسِيرٌ) : مكيل سهل على عزيز مصر لايمنعنا إياه لكرمه .

(مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ) : أي عهدًا منكم مع الله تعالى يدعوني إلى الثقة بوفائكم له .

(إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ) : أي إلا أن تُغْلَبُوا عليه .

(وَكِيلٌ) : موكول إليه تنفيذ هذا الميثاق .

(١) انظر مختار الصحاح .

التفسير

(وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ) :

بيَّنت الآيتان السابقتان أن إخوة يوسف لما رجعوا من مصر بالطعام إلى أبيهم، أخبروه بأن العزيز طلب منهم أخاً لهم من أبيهم جاء ذكره فى حديثهم معه ، وأنه منع منهم الطعام فى المستقبل إن لم يأتوه به ، وأن أباهم ذكر لهم أنهم لم يحدث منهم ما يوجب الثقة بهم وائتمانهم على شقيق يوسف بعد أن فجعوه فى يوسف ، وذكر لهم أن الله هو الحافظ الرحيم ، يكنى بهذه العبارة عن مخاوفه منهم على بنيامين ، وأنه يستعين بالله عليهم وجاءت هذه الآية ومابعدها لتبين أنهم أقنعوه بكرم عزيز مصر حيث أعطاهم الطعام ، ورد إليهم الثمن ، وأنهم سيزدادون به كيل بعير وأن أباهم وافقهم على إرساله معهم ، بعد أن أعطوه موثقا من الله برده إليه.

والمعنى : ولما فتحوا أوعية طعامهم وجدوا بضاعتهم التى دفعوها ثمنا للطعام بمصر قد ردت إليهم ،حيث وضعت دون علمهم فى رحالهم ففوجئوا بها فى أوعية طعامهم، فماذا قالوا لأبيهم ؟

(قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِى هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا) :

قال إخوة يوسف لأبيهم لكى يوافق على إرسال بنيامين معهم أى شىء نطلبه ليكون شاهدا على أن سفر بنيامين معنا سيكون سببا فى خير يأتينا فى هذه المجاعة ، أى شىء نطلبه وراء هذا ــ أكرمنا وَوَفَّى لنا الكيل ، ورد علينا الثمن الذى هو بضاعتنا، فكيف لا نستجيب لطلبه ونجيئه بأخ لنا من أبينا ؟

(وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ) :

أى هذه بضاعتنا التى كنا نريد دفعها ثمنا للطعام ردَّها إلينا العزيز نستعين بها ونَمِير أهلنا أى نجلب الطعام إليهم مرة أخرى ونحفظ أخانا فى هذه المرة حتى لا يصيبه مكروه ، لأنَّا لَنْ نشغل عنه باللهو واللعب ، ونزداد بحضور بنيامين معنا وسق بعير يكال لنا من أجله ، زائدا على أوساق أبَاعِرنَا وأحمالها ذلك الكيل الزائد الذى نطلبه من أجل بنيامين كيل يسير على عزيز مصر وسهل عليه ، فلا يخيبنا فى طلبه فأى شىء نبتغى وراء هذه الأغراض المشتملة على إطعام أهلنا

مرة أخرى وسلامة أخينا ، وسعة الرزق علينا ، فلماذا لا تبعث به معنا حتى نحقق هذه المطالب .

٦٦ - (قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللهِ) :

قال يعقوب لأولاده وقد ألانه كلامهم ، وهيأه لقبول مطلبهم لن أرسل بنيامين معكم كما طلبتم حتى تعطونى عهدا مع الله على رده وموثقا من جهته على ذلك . ليكون شهيدا عليكم ومنتقما منكم إن لم تكونوا أوفياء.

(لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ) :

مرتبط بالقسم المفهوم مما قبله كأنه قال لهم : لن أرسله معكم حتى تحلفوا بالله لتأتننى ببنيامين حين ترجعون من رحلتكم ثانيا إلى مصر ، إلا أن تغلبوا بما لا قبل لكم به فيحول دون وفائكم بقسمكم .

وصورة الميثاق الذى طلبه أبوهم منهم أن يقولوا مثلا : والله لنأتينك ببنيامين ونحن عائدون من مصر بالطعام إلا أن نغلب على أمرنا بما لا قبل لنا به .

(فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ) :

أى فلما أعطى الأسباط أباهم يعقوب - عليه السلام - يمينهم وعهدهم مع الله ، قال يعقوب مؤكدا التوثيق : (اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ) : أنا وأنتم من طلبى القسم وصدور العهد منكم ، (وَكِيلٌ) : مطلع رقيب ، فإن وفيتم أجرتم وإن خنتم انتقم الله منكم .

(وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾)

التفسير

٦٧ - (وَقَالَ يَابَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ) الآية .

كان بنو يعقوب فيهم جمال وكانوا أحد عشر متجانسين تجانس الكواكب ، وقد تجملوا فى هذه المرة أكثر من المرة الأُولى بعد أن أدركوا كرامتهم على العزيز من إعطائهم الطعام فى المرة السابقة دون مقابل ورده بضاعتهم عليهم ، ولهذا كله خَافَ عليهم أبوهم العين إن دخلوا مصر من باب واحد وهم على هذا النمط الفريد . وبخاصة فى زمن المجاعة حيث الناس فى شدة ، وكانت المدن فى الزمان السابق يحيط بها أسوار لحمايتها من الأعداء ، وفى هذه الأسوار أبواب للدخول والخروج منها ، فلهذا أوصاهم أبوهم أن لا يدخلوا مصر من باب واحد بل من أبواب متفرقة .

قال العلامة أبوالسعود : وإصابة العين بتقدير العزيز الحكيم ليست مما يُنْكر ، وقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « إنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ . » . وقوله « : إنَّ الْعَيْنَ لَتُدْخِلِ الرَّجُلَ الْقَبْرَ وَالْجَمَلَ الْقِدْرَ » وقد كان صلى الله عليه وسلم يُعَوِّذ الحسنين رضى الله عنهما بقوله : « أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّةِ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ » وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « كان أبوكما يُعَوِّذُ بِهَا إسماعيل وإسحاق عليهم السلام » . رواه البخارى فى صحيحه ، وقد شهدت بذلك التجارب . إ هـ .

والمعنى ؛ وقال يعقوب لبنيه بعد أن حلفوا له : لا تدخلوا مصر من باب واحد ولكن ادخلوها من أبواب متفرقة بحيث لا يبدو لكم اجتماع حتى تسلموا من حسد الحاسدين ولست أُغنى عنكم بحذرى هذا من قضاء الله من شىء وإنما هو نوع من التدبير ، وأما ترتيب المنفعة عليه فهو إلى الله العزيز القدير ، كما أنه استعان بالله وهرب منه إليه ، وقال يعقوب أيضا ماالحكم فى أمر الخلائق جميعا إلا لله وحده ، عليه دون سواه توكلت واعتمدت ، وعليه فليتوكل المتوكلون ، فإنه مفزع كل خائف ، ومجيب كل سائل ، ومعاذ كل مستعيذ .

وفى الآية الكريمة هداية يعقوب لأولاده ، وإرشادهم إلى التوكل على الله فيما هم بصدده غير معتمدين كل الاعتماد على ماوصاهم به من التدبير .

(وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾)

المفـردات :

(مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ) : من الأبواب المتفرقة التى أمرهم بالدخول منها .

(لِمَا عَلَّمْنَاهُ) : لتعليمنا إياه بالوحى .

(فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) : فلا تأسف ولا تحزن بسبب ماصنعوا.

التفسير

٦٨ – (وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ . .) الآية .

أى خرج إخوة يوسف من الشام متجهين إلى مصر حتى وصلوا إلى مداخلها ، ولما دخلوها من أبواب متفرقة حيث أمرهم أبوهم .

(مَا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ اللهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا) :

أى ما كان دخولهم من حيث أمرهم أبوهم يدفع عنهم من أمر الله شيئا مما قضاه عليهم مخالفا لما أمله أبوهم بتدبيره ، ولكن قضى حاجة فى نفس يعقوب بدخول أبنائه من أبواب متفرقة حسب إرادته ، لعلّه يدفع عنهم إصابة العين ، وذلك من باب ربطه المسببات بأسبابها العادية كما جرَّبه الناس ، ولكن إصابة العين لم تقع لهم لكونها غير مقدرة عليهم ، ولو كانت مقدرة لم يدفعها دخولهم من أبواب متفرقة.

(وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ) :

وإن يعقوب لصاحب علم جليل لأجل تعليمنا إياه بالوحى ، حيث لم يعتقد أن الحذر يدفع القدر ، وأن التدبير له حظ من التأثير بتغيير قضاء الله ، ولهذا قال لهم : «وَمَا أُغْنِى عَنْكُم مِّنَ اللهِ مِنْ شَىْءٍ »أى وماأدفع عنكم بهذا التدبير من شىء قضاه الله ، وإنما يحذر الناس ويدبرون لعل تدبيرهم يرتبط بقضاء الله وقدره. فاتخاذ الأسباب مشروع لهذا

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) .

أى ولكن أكثر الناس لايعلمون أسرار القدر ، ويزعمون أن الحذر يغنى من القدر

٦٩ - (وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ) :

أى ولما دخلوا على يوسف ومعهم بنيامين أكرمهم لأنهم وفوا بوعدهم معه ، وآوى إليه أخاه الشقيق بنيامين حيث ضمه إليه سكنا وطعاماً ، بطريقة لا تدخل ريبة فى نفوسهم ، ولما خلا به .

(قَالَ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) :

أى قال يوسف لبنيامين مؤنسا له وكاشفا له عن سره الخطير ، إنى يابنيامين أنا يوسف أخوك ، وسرد عليه قصته ثم قال فلا تحزن بسبب ما كانوا يعملونه بنا فيما مضى ، فقد أحسن الله إلينا وجمعنا بخير ، ولا تعلمنهم بما أعلمتك به ، حتى تمضى الأمور إلى غايتها.

(فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾)

المفردات :

(جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ) : الجهازة فى اللغة : ما يحتاج إليه المسافر والعروس والميت ، وتجهيزهم بجهازهم تنجيز مايحتاجون إليه من الطعام وإعداده فى أوعيتهم .

(السِّقَايَة) : المشربة التى يُشْرَبُ بِها ،وهى والصواع شىءٌ واحد ،قال الشاعر :
نشرب الخمر بالصُّواع جهاراً .
(رَحْلِ أَخِيهِ) : المراد به وعاءُ الطعام الخاص بأخيه بنيامين . (أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ) : نادى منادٍ .
(أَيَّتُهَا الْعِيرُ) : العير هى الأبل التى عليها الأحمال ، والمراد بندائها نداءُ أصحابها ،
وقال أبو عبيد هى الإبل الْمَرْحُولَةُ المركوبة . (زعيم) : كفيل وضمين .

التفسير

٧٠ - (فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ) :

تقدم بيان أن يوسف عليه السلام عقد العزم على استقدام آل يعقوب إلى مصر بعد أن وفد إخوته عليه أول مرة ليحصلوا على الطعام لذويهم، وكانوا قد حدثوه عن أخ لهم من أبيهم هو بنيامين ، ولعلهم طلبوا له طعاما ، فطلب منهم أن يحضروه معهم فى المرة المقبلة ليأخذ طعامه بنفسه ، ولهذا قالوا لأبيهم حين طلبوه منه بعد عودتهم من مصر : «وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ » .أى نزداد كيل بعير من أجل بنيامين فلما حضروا به فى المرة الثانية وأراد يوسف أن يستبقيه ، لم يجد سببا لاستبقائه عنده إلا أن يأمر بدس إنائه الذى يشرب به فى رحل بنيامين ، وكان إناءً ثمينًا يمكن الاتهام بسرقته لارتفاع قيمته ، فلهذا جعل ذلك الإناء المعبر عنه بالسّقاية فى الآية ـ جعله فى رحل أخيه بنيامين أى وعاء طعامه ،وسيأتى الكلام عن الحكمة فى اختياره هذا السبب لاستبقائه لديه .

(ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ) :

أى ثم بعد أن جعل السقاية فى رحل بنيامين وركب إخوة يوسف دوابهم ، نادى منادٍ فيهم ياأصحاب العير إنكم لسارقون ، ولم يعين لهم ماسرقوه فى ندائه ليسترعى كامل انتباههم ، ويَظْهَرُ ـ والله أعلم ـ أن هذا الذى حدث كان بموافقة من بنيامين ليبقى عند أخيه يوسف حتى يأتى والداه وأسرته.

فإن قيل كيف رضي بنيامين بذلك مع مافيه من زيادة الحزن على أبيه ، وكيف ينسب يوسف السرقة إلى إخوته وهم برآء منها .

والجواب عن الأول : أن الحزن كان قد غلب على يعقوب بفقد يوسف فلا يؤثر فيه كثيرا فَقْدُ بنيامين ، ولهذا لمَّا لَمْ يَعُدْ بنيامين لم يذكرْ يعقوبُ سوى يوسف ، إذ قال : « يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ » .

والجواب عن الثانى : أنهم قد سرقوا يوسف من أبيه وألقوه فى الجب . ولذا قيل لهم إنكم لسارقون ولم يعين لهم ماسرقوه .

٧١ ـ (قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ) :

أى قال إخوة يوسف وقد أقبلوا على من ينادونهم ويتهمونهم بالسرقة ماذا ضاع منكم حتى اتهمتمونا بسرقته ؟ .

٧٢ ـ (قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ) :

أى قال هؤلاء المنادون نفقد سقاية الملك الثمينة التى يشرب بها ، ويطلق عليها صواعَ .

(وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ) :

أى وقال من آذنهم وأعلمهم بأنهم سارقون ـ تلطفا معهم ومنعا لإحراجهم بتفتيش جهازهم ، وإثبات السرقة عليهم ـ قال لهم ـ : سيكون لمن جاء بصواع الملك من تلقاء نفسه قبل التفتيش حمل بعير من الطعام مكافأة له على إظهاره ، فربما وجد فى رحالهم اتفاقا من غير قصد ، فلذا يكافأ من جاء به وعثر عليه ، وأكد المنادى تحقيق هذا الوعد بقوله وأنا بتحقيقه زعيم أى ضمين وكفيل.

(قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾)

التفسير

٧٣ - (قَالُوا تَا للهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ) :

تالله بمعنى والله ، وتختص التاء بالدخول على لفظ الجلالة على الأرجح ، ويُقْسَمُ بهذا القسم عند التعجب .

والمعنى : وحق الله لقد عرفتم من استقامتنا فى المعاملة ، وما نحن عليه من التدين والتَّصَوُّن ، أننا ما جئنا لكى نفسد فى الأرض بسرقة أو غيرها ، بل جئنا للحصول على الطعام ، وماكنا من قبل سارقين ، فما حدثت منا سرقة فى حياتنا ولا وصفنا بها فكيف يستقيم وصفكم لنا بسرقة صواع الملك ؟

٧٤ - (قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ) :

قال عمال الملك لإخوة يوسف فما جزاءُ سرقة صواع الملك فى شريعتكم ، إن كنتم كاذبين فى دعواكم أن الصواع ليس فى أوعيتكم .

٧٥ - (قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ) :

أى قال إخوة يوسف جزاءُ الصواع المفقود فى شريعتنا أخذ من وجد فى رحله ، واسترقاقه فكذا يعاقب السارق عندنا وهذا جزؤه ، ثم أكدوا هذا الحكم مرة أخرى بقولهم :

(كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) :

أى مثل هذا الجزاء نجزى الظالمين بالسرقة فى شريعتنا ، يقولون ذلك ثقة ببراءتهم منها ، وهم غافلون عما دُبِّر لهم .

٧٦ - (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ) :

فبدأ يوسف بتفتيش أوعية إخوته العشرة الذين هم من أبيه ، قبل تفتيش وعاء أخيه الشقيق بنيامين ، لِنَفْيِ التهمة فى أول الأمر عن نفسه إن بدأ به ، فإنهم حينئذ يقولون إنه جعلنا نطلبه من أبيه ليفتعل هذه التهمة لأمر يريده لم ينكشف لنا بعد ، فلهذا أبقاه بعدهم ، ولينسيهم فرحهم ببراءتهم أولا ، ماحدث لأخيهم من أبيهم أخيرا ، بل وليدفعهم ذلك إلى قالة السوء فيه وفى يوسف وهو قولهم : « إن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِن قَبْلُ » وسيأتى الكلام فى بيانه .

(كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ) :

أى مثل ذلك الكيد المحكم حيث أرشدنا الإخوة إلى الإفتاء باسترقاق من وجد فى رحله ، مثل ذلك الكيد كدنا لأجل يوسف أى دبرنا له المقدمات لكى يحصل بها على غرضه ، وتلك المقدمات هى دس الصواع فى رحالهم وما تلاه حتى آل الأمر إلى تحقيق ما أراده من بقاء بنيامين معه .

(مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ) :

هذا تعليل لما قبله ، أى كدنا ليوسف بهذه الطريقة ، لأنه ما كان يستطيع أن يأخذ أخاه فيما يدين به الملك فى أمر السارق أى فى حكمه وقضائه الذى يَدِينُ به هو وشعبه ، فإنه لم يكن جزاءُ السارق فيه الاسترقاق ، بل عقوبة أخرى كالضرب والتغريم ، فلهذا جعله يحتكم إلى شريعتهم حتى يستبقيه لديه .

(إلاَّ أن يَشَاء اللهُ) :

أى ما كان يوسف ليأخذ أخاه فى دين الملك فى حال من الأحوال إلا فى حالة مشيئة الله هذا الكيد والتدبير ، فإن دين الملك حينئذ يقره مادام السارق يدين به ويعتقده ، لأنه يحقق له من الجزاء أكثر مما عنده فى قوانينه ، ولهذا وافقهم على فتواهم وأبقاه عنده .

(نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ) :

أى نرفع درجاتٍ عالية من العلم والحكمة فى التصرف من نشاءُ من عبادنا كما رفعنا يوسف ، وماكان ليصل إلى ماوصل إليه لولا تدبير الله وتهيئته أسبابه ، فإنه فوق كل صاحب علمٍ من الخلق عليم لا غاية لعلمه وهو الله تعالى ، ولولا إرشاده وتعليمه لما وصل ذو علم إلى علمه .

(* قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾)

المفردات :

(شَرٌّ مَّكَانًا) : أسوأ مكانة ومنزلة .

(وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ) : والله عالم أبلغ العلم بحقيقة ما تزعمون منْ صدور السرقة عن أخيه.

التفسير

٧٧ـ (قَالُوا إن يسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ) :

تقدم الحديث عن وضع صواع الملك الثمين فى رحل بنيامين سرًّا ، وأن رجال يوسف اتهموا إخوته بسرقة الصواع قائلين لهم : « أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ » . فلما نفوا

عن أنفسهم هذه التهمة سألوهم عن حكم سارقه فى شريعتهم إن ظهر كذبهم .

« قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ ». فبحث يوسف فى أوعيتهم قبل وعاء شقيقه بنيامين ، ثم استخرجه من وعائه . وبهذه الحيلة استطاع إبقاء أخيه معه وهم لا يشعرون أن هذه القصة مصنوعة لتحقيق هذا الغرض ، وجاءت هذه الآية وما بعدها لبيان الأحداث التى تلت ذلك، والمعنى : قال إخوة يوسف غير الأشقاء إن يسرق بنيامين فقد سرق أخ شقيق له من قبله ، يقولون ذلك تبرئة لأنفسهم من وصمة السرقة ، مُدَّعين أن خلق السرقة فى بنيامين قد سبقه إليه أخ شقيق أكبر منه - يعنون يوسف عليه السلام - وأنهم برآء من هذا الخلق لأن الأم مختلفة وماَدَرَوْا أن يوسف الذى اتهموه زُورًا يسمع كلامهم ويعرف أنهم كاذبون .

واختلف فيما نسبوه إلى يوسف، ومن أظهر ما قيل فيه ما أخرجه ابن مَرْدَوَيْه عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى الآية : «سرق يوسف عليه السلام صنما لجده أبى أمه من ذهب وفضة ، فكسره وألقاه على الطريق ،فعيره إخوته بذلك» ويرى الحسن أنهم كذبوا على يوسف فيما نسبوه إليه ،ولعله لا تنافى بين هذا وما روى عن ابن عباس إن صح فإن من أخذ الصنم لكى يحطمه لايعتبر سارقا شرعا ،فيكون وصفهم له بالسرقة كذبا ، لأنه مخالف للشرائع ، ويكونون بذلك كاذبين على يوسف .

(فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا) :

أى فأخفى يوسف فى نفسه هذه الفرية التى افتروها عليه ، ولم يظهرها لهم أنها فرية ، كتمانا لأمره حتى يفاجئوا فى نهاية القصة بما آل إليه أمره فى الملك فيندموا على مافرط منهم فى حقه . ولكن قال فى نفسه عنهم : أنتم أسوأ منى منزلة فى السرقة ، وأقوى فى الاتّصَافِ بهذا الوصف ،حيث سرقتمونى من أبى وألقيتمونى فى الجب، ولولا رحمة ربى لكنت من الهالكين ، أما أنا فلم أسرق ولكنى حطمت الصنم وألقيته على الطريق .

وقال بعض المفسرين : إن الذى أسرَّه يوسف فى نفسه ولم يبده لإخوته هو قوله : —
(أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ) : فهذه الجملة تفسير للضمير فى قوله : « فَأَسَرَّهَا ». وبه قال الزجاج .

ثم أتمَّ يوسف كلامه الذى أسرَّه فى نفسه فقال :

(وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ) :

أى والله أعلم بحقيقة ما تقولون وصفا لى ولأخى من أنه سرق وأننى سرقت قبله فكلانا برىءٌ من السرقة كما يعلم الله تعالى .

(قَالُوا يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾)

المفـردات :

(مَعَاذَ اللهِ) : المعاذ والعياذ والعوذ بمعنى الالتجاء . وقد يقصد منها التبرؤُ كما هنا. فمعاذ الله هنا بمعنى نبرأُ إلى الله .

(مَتَاعَنَا) : المتاع ماينتفع به إلى حين ، والمقصود منه هنا صواع الملك .

التفسير

٧٨ — (قَالُوا يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا . .) الآية.

أى قال إخوة يوسف حينما رأوا أن يوسف سيستبقى بنيامين عنده طبقًا لفتواهم ، قالوا له مستعطفين : يـأيها العزيز إن لبنيامين أباً شيخًا طاعنا فى السن لا يستطيع فراقه ، وهو سلواه عن شقيقه المفقود ، فخذ أحدنا بدلا منه ، فلسنا عنده بمنزلته من المحبة .

إنا نراك من المحسنين إلينا ، فأتمم إحسانك علينا ، أو نراك ممن عادتهم الإحسان ، فلا تغير عادتك معنا ، فنحن أحق الناس بذلك ، نظرا لحال أبيه والتزامنا أن نرده إليه !

وهم حين عرضوا عليه أن يسترق أحدهم مكانه لايرون أن ذلك مشروع عندهم ، فإنه لا يؤاخذ بالذنب سوى صاحبه ، ولكنهم يقولون ذلك مبالغة فى استنزاله عن أخذ بنيامين.

٧٩ - (قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ) :

قال يوسف : نعوذ بالله ونبرأ إليه من أن نأخذ إلا من وجدنا صواعنا عنده بموجب فتواكم طبقا لشرعكم ، فلا نحب الإخلال بها ، إنا إذا أخذنا غيره ولو يرضاه لظالمون فى مذهبكم وشريعتكم ونحن لا نحب ذلك.

والتعبير بضمير المعظم نفسه (إِنَّا إِذًا لَّظَالِمونَ) بدلا من ضمير المفرد - إِنِّى إِذًا لَظَالِم - جرى على سنن الملوك.

(فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ) : يئسوا منه أشد اليأس. (خَلَصُوا نَجِيًّا) : انفردوا عن يوسف وغيره متناجين أى متسارّين ، والنَّجِىُّ من تتحدث معه سِرًّا واحدًا أو أكثر ، والنجوى السر .

(الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا) : هى مصر والمراد بها أهلها. (وَالْعِيرَ):وأصحاب العير الذين كانوا معنا .

التفسير

٨٠ - (فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا) :

أى فلما يئسوا من يوسف أن يجيبهم إلى ماطلبوه منه من ترك بنيامين وأخذ أحدهم مكانه ، حيث قال لهم على سبيل الحسم: «مَعَاذَ اللهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ» فإن ذلك يدل على غاية الكراهة لما طلبوه حتى تعوّذ بالله من حصوله - فلما يئسوا منه أشد اليأس لذلك انفردوا عنه وعن أعين الناس متحدثين سِرًّا فى طريقة الخلاص من هذه المشكلة ، وكيف يبلغونها لأبيهم؟ وماذا يكون وقعها عليه؟ وهو لم ينس يوسف بعد ، ولم تبرد نار فراقه فى فؤاده .

(قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللهِ وَمِن قَبْلُ مَافَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ) :

قال كبيرهم فى السن أو فى المنزلة حين رآهم مجمعين على أن يعودوا جميعًا دون بنيامين ، ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم عهدا وثيقًا من الله ، حيث حلفتم به سبحانه لنرجعن ببنيامين إليه ، فكيف تعودون إليه وليس معكم ، أو لم تعلموا مِنْ قَبْلُ - أى من قبل بنيامين - تفريطكمْ وتقصيرَكُم فى شأن يوسف وأنكم لم تحفظوا فى حقه عهدكم مع أبيكم ، إذْ قلتم له مرة : «وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ» . وأخرى : «وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» . فكيف نعود إليه بعد كل هذا ؟

(فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي) :

فبعد كل هذا لن أفارق أرض مصر حتى يأذن لى أبى بالعودة إليه ، أو يحكم الله لى بالخروج منها على وجه لا يؤدى إلى نقض الميثاق ، أو بخلاص أخى بسبب من الأسباب. (وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ) : لأنه لا يحكم إلا بالحق والعدل.

ثم وصل الكبير كلامه بقوله :

٨١ - (ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَاأَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا) :

أى عودوا إلى والدكم يعقوب فحدثوه بما وقع ، قولوا له يا أبانا إن ابنك بنيامين سرق صواع الملك ووضعه فى رحله ، فأخذه وزير العزيز طبقا لشريعتنا وكان قد استفتانا قبل أن نعلم الأمور ويتبين لنا الحال ، وما شهدنا عليه بالسرقة إلا بما علمناه من وجود الصواع فى رحله ، وما كنا لما غاب من أمره عالمين ، فلذا أعطيناك المواثيق فاعذرنا ، فإن الذنب ليس ذنبنا .

ثمَّ أشار عليهم بما ظن أنه يحمل أباهم على التصديق فقال :

٨٢ - (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا) :

أى وأَرْسِلْ إلى أهل مصر المتصلين بالملك حيث كُنَّا معهم فيها واسألهم عن ذلك ، واسأل القافلة التى كُنَّا فيها ، فإن القصة شائعة فيهم ومعروفة لديهم ، ثم ختم الكبير كلامه لإخوته بجملة يؤكدون لأبيهم بها أنهم صادقون فقال : (وَإِنَّا لَصَادِقُونَ) : فلا نخاف سؤالهم - قيل إن أصحاب العير كانوا من الكنعانيين ، وكانوا جيران يعقوب عليه السلام .

(قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾)

المفردات :

(سَوَّلَتْ) : زينت وسهّلت. (فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) :هو الذى لا يكون معه ضجر ولا شكوى لأحد . (يَاأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ) :الألف فى « أَسَفَى » بدلا من ياء المتكلم للتخفيف والأصل ياأسفِى بكسر الفاء ، والأسف أشد الحزن على مافات. (فَهُوَ كَظِيمٌ) : فهو مملوءُ القلب غيظا ،لكنه لا يظهر ،وقيل مملوءُ القلب حزنا ممسك له لا يبديه. من كَظَمَ السِّقَاء إذا شدَّه بَعْد ملئه ، فَهُوَ فَعِيل بمعنى مفعول. (وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ) :أصابتها غشاوة بيضاءُ .

التفسير

٨٣ـ (قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أمرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ) :

طوى القرآن من القصة ماليس بحاجة إلى التصريح ،وبيان ذلك أن هذا القول من يعقوب رَدٌّ به على أولاده بعد عودتهم إلى أرض الشام وإخباره بالقصة على نحو ما أوصاهم به كبيرهم .

والمعنى : عاد إخوة يوسف من مصر برحالهم ، وأخبروا أباهم بالقصة على نحو ما وصَّاهم به كبيرهم ـ قال يعقوب متهما لهم : ليس الأمر كما زعمتم ،بل زينت لكم أنفسكم أمرا فى شأنه لتتخلصوا منه ففعلتم مازينته لكم أنفسكم ،فصبر جميل على مافعلتم أحق بى .

واعلم أنهم لم يخبروا أباهم فى شأن بنيامين إلا بما ظهر لهم ، وأنهم لم تسول لهم نفوسهم فى شأنه أمرًا ـ كما قال أبوهم يعقوب عليه السلام ـ فكيف قال لهم ماقال؟ !

أجاب ابن المنيِّر عن هذا السؤال بقوله :إنهم كانوا عند أبيهم متهمين لما أسلفوه فى حق يوسف ، وقامت عنده قرينة تؤكد التهمة وتقويها وهى أخذ الملك له فى السرقة ،ولم يكن ذلك فى دين ملك مصر ،ولا فى دين غيره ،وإنما كان ذلك فى شرع يعقوب الذى يدين به أولاده ، فظن أنهم هم الذين أفْتَوْه بذلك عمدا بعد ظهور السرقة التى ذكروها ، ليتخلف بنيامين دونهم. ا هـ . هذا تلخيص ماحكاه الآلوسى عن ابن المنير فى جواب هذا السؤال .

(عَسَى اللهُ أن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) :

لم يفقد يعقوب الأمل فى رحمة الله ، ولم يقطع الرجاء فى عودة يوسف وبنيامين إليه فلذا قال عقب اتهامه لأولاده فى شأن بنيامين : عسى الله أن يأتينى بأولادى جميعًا يوسف وبنيامين ،وابنى الكبير الذى تخلف فى مصر حتى آذن له بالعودة أو يحكم الله له . وأكَّد رجاءه فى الله بقوله : (إنَّهُ هُوَ العَلِيمُ الحَكِيمُ) : إنه هو الواسع العلم الذى يبتلى بحكمةٍ ويرفع البلاء بحكمة وهو أرحم الراحمين ، هذا وقد قيل إن مبعث الرجاء عنده تلك الرؤيا التى رآها يوسف فى صغره « إنِّي رَأَيْتُ أحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ». فكان ينتظر تحقيقها ، وبحسن ظنه بالله تعالى ، وبخاصة بعد أن اشتد به الكرب ، وقد جرت سنته تعالى أن يجعل بعد الشدَّة المستحكمة فرجاً ، وبعد العسر يُسْرًا .

٨٤ - (وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاأَسَفَى عَلَى يُوسُفَ) :

وأعرض عن أولاده كراهة لما سمعه منهم ،وقال: ياأشد الحزن والأسف على يوسف تَعالَ إلىَّ ، فقد تجدد مايدعونى إلى استدعائك ،قالوا :وإنَّما تأسَّف على يوسف مع أن الحادث الجديد هو مصيبة بنيامين وابنه الكبير الذى تخلف لأجله ،لأن مصيبة يوسف كانت أساس حزنه ،وحبه كان آخذًا بمجامع قلبه ،ولأنه كان واثقا بحياة ولديه بمصر ، طامعا فى عودتهما إليه ، أما يوسف فلم تكن عنده بارقة أمل إلا فى رحمة الله تعالى .

(وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) :

وابيضت عينا يعقوب بسبب الحزن وما كان يسببه له من دوام البكاء ، فهو مملوءٌ من الحزن على أولاده الغائبين ، ومملوءٌ من الغيظ من أولاده الحاضرين ، وكان عماه هذا موقتا إن صح القول به ، وكان بعد أن بلَّغ دعوة ربه ، فلا يقال : إنه من الأمراض المانعة من التكليف بالرسالة . ومن العلماء من قال : إن أمره لم يصل إلى حد العمى . فقد كان يرى إلى حدٍّ ما .

فَإنْ قِيل كيف يكون نبيًّا ويبلغ به الحزن إلى هذا الحد؟ قلنا أجيب عن ذلك بعدَّةِ أجْوبة ، خَيْرُهَا : أَنَّ الحزن ليس محظورًا ، وإنما المحظور الولولة وشق الثياب والكلام بما لا ينبغي . فقد روى الشيخان من حديثِ أنس أنه صلى الله عليه وسلم بكى على ولده إبراهيم وقال : « إنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَخْشَعُ وَلَانَقُولُ إلاَّ مَايُرْضِي رَبَّنَا ، وَإنَّا لِفِرَاقِكَ يَاإبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ » .

وقد بين الله شدة حزن يعقوب بقوله : (فَهُوَ كَظِيمٌ) : أى مملوءٌ من الحزن ممسك عليه لا يبثه .

ومِمَّا شَدَّد عليه الحزن حتى امتلأ ، ما روى عن ابن عباس أنه كان يعلم أن يوسف حَيٌّ ولا يدرى أين هو ؟ انظر القرطبي والآلوسى .

(قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾)

المفـردات :

(تَالله) : أى والله ، فالتاء حرف يستعمل فى القسم بالله خاصة .

(تَفْتَأُ) : أى مازلت .

قال الكسائى : فَتَأْتُ وَفَتِئْتُ أى مازلتُ ، وقال الفراء : إن الكلام هنا بتقدير

(لا) أى: (لَا تَفْتَأُ) . وكثيرًا ماتضمر (لا) فى جواب القسم كمافى قول امرىء القيس :

فقلت يمين الله أبرح قاعدًا ولو قَطَّعوا رأسِى لديكِ وأوصالى

أى بحق الله لاأبرح ،وهو رأى الخليل وسيبويه ،وعلَّلُوا جواز ذلك بأنه لايلتبس بالإثبات إذ لو كان على الإثبات لوجب اقترانه باللام والنون كقولك : تَا لله لأفعلنَّ كذا .

(حَرَضًا) : الحرض لُغَةً فساد الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهَرَم كما قال أبو عبيد وغيره.

(بَثِّى) : البث المصيبة التى لا قدرة لأحد على كتمانها فيبثها وينشرها .

التفسير

٨٥ـ(قَالُوا تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ) :

أى قال أولاد يعقوب لما سمعوه يردد الأسف على يوسف بعد فجيعته فى بنيامين دون أن يذكر فى أسفه بنيامين ـ قالوا له :والله ياأبانا لا تبرح تتذكر يوسف بعد مضى هذه السنين الكثيرة على فقده ، وتبدى أشد الحزن وأغزر البكاء عليه ،حتى تشرف على الهلاك أو تكون من الهالكين حقيقة فخفف على نفسك ولا تتلفها بالهم والأسى !

٨٦ـ (قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللهِ) :

قال يعقوب مجيبًا أولاده عقب لومهم إياه على حزنه الذى طال أمده بعد فقده يوسف: ـ قال يعقوب لهم ـ ما أشكو مصيبتى التى لا أستطيع إخفاءها ، ولا أشكو حزنى لأحد إلا إلى الله فهو القادر على كشف الضر ، وأتبع يعقوب كلامه هذا بما يفيد أمله فى رحمة الله فقال :

(وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ) :

وأعلم من شأن الله ورحمته مالا تعلمون ، فقد كان يحس بوجدانه النبوى الصادق وبما قام لديه من الأمارات أن يوسف حى لم يمت وأنه وصل أو سيصل إلى منزلة عظيمة بين الناس ، وأن شمل الأسرة سوف يجتمع بزعامة يوسف.

وأول الشواهد على ذلك : رؤيا يوسف التي رآها في صباه؛ لقد رأى أحد عشر كوكبًا، ورأى الشمس والقمر، رأى هؤلاء جميعًا له ساجدين، فلما سمع يعقوب من يوسف هذه الرؤيا الصادقة أدرك أنها ستتحقق ، وأوصاه أن يكتمها عن إخوته حتى لا يكيدوا له .

وثاني هذه الشواهد : هذا القميص الذي جاءوا به ملوثًا بالدم ، زاعمين أن الذئب أكله وأن الذي تلوث به القميص دمه ، وكان القميص بغير تمزق، فأدرك أن قصة الذئب مخترعة مصنوعة إذ لو أكله لمزّق قميصه . ولذا كذبهم فقال : « بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ » .

وثالث هذه الأمارات : ماأخبره به أولاده من سيرة عزيز مصر نحوهم وعطفه عليهم، وضيافته لهم، فأحسّ أنهم يتحدثون عن أمله المنشود ولذلك قال لهم :

(يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾)

المفردات :

(فَتَحَسَّسُوا) : التحسس : طلب معرفة الشيء بالحواس .

(وَلَا تَيْئَسُوا مِن رَّوْحِ اللهِ) : ولا تقنطوا من رحمته التي يحيي بها العباد .

التفسير

٨٧ - (يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ...) الآية .

أي يا بنيَّ ارجعوا إلى مصر حيث ينتظركم أخوكم الكبير فتعرَّفوا جميعًا من أخبار يوسف وأخيه ، وابحثوا عنهما بكل قواكم جادّين دائبين ،ولاتقنطوا من رحمة الله التي وسعت كل شيء، إنه لايقنط من رحمة الله سبحانه إلا القوم الكافرون، لجهلهم به وبصفاته ، وأما العالمون به فلا يقنطون بحال .

واستدل بالآية جمع من العلماء على أن اليأس من رحمة الله كفر !

والجمهور على أن اليأس من رحمته تعالى من الكبائر ، اللهم إلا إذا اقترن بمايدل على نسبته سبحانه إلى العجز عن تنفيس الكرب أو مغفرة الذنب ،وأيًّا ما كان الأمر فاليأس من رحمة الله من صفات الكفار ، ومن أسباب الكفر والعياذ بالله تعالى .

ووصية يعقوب عليه السلام لبنيه فى الآية الكريمة درس من دروس النبوّة فى شحذ الهمم وتربية العزائم .

(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَٰأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾)

المفردات :

(وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ) : المراد من البضاعة هنا :الثمن والمزجاة المدفوعة التى يردها من يراها لرداءتها من أزجيته إذا دفعته ، والريح تزجى السحاب :تسوقه وتدفعه . وقال ثعلب : البضاعة المزجاة الناقصة غير التامة اهـ . ومن معانيها القليلة كما ذكره صاحب القاموس ، ولعل هذا المعنى هو المراد هنا .

التفسير

٨٨ - (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَـٰأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ . . .)الآية .

أى فلما دخلوا على يوسف بعد ما رجعوا إلى مصر امتثالًا لأمر أبيهم! وإنما لم يذكر هذا المطوىّ إيذانًا بمسارعتهم إلى الامتثال ، وإشعارًا بأن هذا أمر محقق لايفتقر إلى الذكر والبيان . وهذه هى المرة الثالثة من ذهابهم إلى مصر .

(قَالُوا يَـٰأَيُّهَا الْعَزِيزُ) : خاطبوه بذلك تعظيمًا على حد خطابهم السابق ؛ والمراد - كما قال الفخر الرازى وغيره - يأيها الملك القادر المنيع .

(مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ) : أى الهزال من شدة الجوع - والمراد بالأهل ما يشمل الزوجة وغيرها .

(وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ) : قليلة القيمة . لا تصلح أن تكون ثمنًا للطعام الذى نريده ، قيل كانت بضاعتهم من متاع الأعراب . صوفًا وسمنًا . ونحوهما . وإنما قالوا ذلك ليكون باعثًا على الشفقة والرأفة وتحريك عاطفة الرحمة . وتمهيدًا لقولهم :

(فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ) : أى أتممه لنا كعادتك .

(وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا) : برد أخينا إلينا وهو الأنسب بحالهم نظرًا إلى أمر أبيهم . وإنما سمّوه تصدقًا - قصدًا إلى استعطافه!

(إِنَّ اللهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ) : بما هم أهله . بل بما هو - تبارك وتعالى- أهله : بإخلاف ما ينفقونه . وإثابتهم بما هو خير منه فى الآخرة والأولى .

٨٩ - (قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ . ..) :

أى قال يوسف عليه السلام مُجيبًا لإخوته وقد هزّه استعطافهم ؛ وأخذته الشفقة عليهم : هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون بقبحه فلذا أقدمتم عليه . أو جاهلون عاقبته ! ! - قال ذلك نُصْحًا لهم وتحريضًا على التوبة وشفقةً عليهم لما رأى عجزهم ،

ومسكنتهم ، لا معاتبةً لهم وتثريبًا[(١)] . . . إيثارًا لحق الله تعالى على حق نفسه فى ذلك المقام الذى يتنفس فيه المكروب ويتشفى فيه المغيظ المحنق. فلله تعالى هذا الخلق النبوى الكريم .

٩٠ـ (قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي .. .) الآية .

هذا استفهام تقريرى ولذا أكّدوه بإن واللام . قالوه استغرابًا وتعجبًا وفرحًا بنجاح تحسسهم الذى وصاهم أبوهم به . (قَالَ أَنَا يُوسُفُ) : جوابًا عن مسألتهم وقد زاد عليه قوله :

(وَهَذَا أَخِي) : ـ أى أخى من أبوىَّ ـ مبالغة فى تعريفهم بنفسه ، وتفخيمًا لشأن أخيه ؛ وتحدُّثًا بنعمة الله عليهما قال :

(قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا) : بالخلاص مما ابتلينا به والاجتماع بعد الفرقة ،والعزة بعد الذلة والأُنس بعد الوحشة ، ثم علل ذلك بقوله : (إِنَّهُ مَن يَتَّقِ) : الله فى جميع أحواله . (وَيَصْبِرْ) : على أداء طاعاته وتجنب معاصيه .

(فَإِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) : أى فإن الله لا يضيع أجرهم ، وعبر عنهم بالمحسنين ، ليشير بذلك إلى أن أهل التقوى والصبر هم أهل الإحسان ،وهم الأحقاءُ بجزاء الله العظيم وإحسانه ورحمته فى الدنيا والآخرة . قال تعالى : « هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ »[(٢)] . وقال تعالى : « إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ »[(٣)] .

---

(١) التثريب : اللوم .
(٢) سورة الرحمن ، الآية : ٦٠
(٣) سورة الأعراف ، الآية : ٥٦

(قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾)

المفردات :

(تَاللهِ) : أى والله . وتقدم قريبًا أن التاء حرف للقسم بالله خاصة .

(آثَرَكَ) : اختارك وفضَّلك .

(لَخَاطِئِينَ) : لمذنبين متعمدين .

(لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ) : لا لوم عليكم ولا تأنيب ؛ يقال ثَرَبه يَثْرِبه وثَرَّبه إذا بكَّته بفعله وعدَّد عليه ذنوبه .

التفسير

٩١ - (قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ) :

أى قال إخوة يوسف تصديقًا له عليه السلام واعترافًا بخطيئتهم : والله لقد اختارك الله وقدَّمك علينا بما ذكرت من النعوت الجليلة التى أنعم الله بها عليك . وإن الشأن والأمر الذى لاريب فيه أننا كنا مذنبين متعمدين . إذْ فعلنا ما فعلنا . وفرقنا بينك وبين أخيك ! !

ولقد أكدوا قولهم هذا بعدّة تأكيدات إشعارًا بالتوبة والندم على ما كان منهم ، وانتظارًا للصفح عنهم . وهو ما حكاه الله بقوله :

٩٢ - (قَالَ لَاتَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ) :

أى لا لوم عليكم ولا تأنيب فى هذا اليوم الذى هو مظنة للمؤاخذة والمعاتبة فما ظنكم

بالأيام التى بعده ؟ ! عفا عنهم عليه السلام عفوًا لا مؤاخذة معه وهذا هو الصفح الجميل ؛ ثم دعا لهم بمغفرة الله تعالى فقال :

(يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) : لأن كل رحمة من غيره سبحانه وإن عظمت فهى مستمدة من رحمته .

وفى ختام دعائه بقوله : (وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) إشارة إلى وثوقه بإجابة دعائه لأنه عفا عنهم ، فالله تبارك وتعالى أولى منه بالعفو عنهم والرحمة لهم ! والذى أشرنا إليه من الوقف على « اليوم » وأن الجملة بعده دعائية مستأنفة هو اختيار الطبرىّ وابن إسحق وغيرهم . قال الآلوسى : وهو الذى يميل إليه الذوق .

ويجوز الوقف على قوله : (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ) : والاستئناف بقوله : (الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ) : والمعنى فى هذا اليوم العظيم يغفر الله لكم ويرحمكم وهو أرحم الراحمين . وقد استشهد الرسول صلى الله عليه وسلم فى عفوه عن قريش بما حدث من يوسف مع إخوته . إذ قال فى خطبته يوم الفتح الأعظم : « يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟ ! قالوا خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم ، قال فإنى أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : « لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ » .

٩٣ - (اذْهَبُوا بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ) :

عَلِمَ يوسف عليه السلام بطريق الوحى أو بسؤال إخوته أن أباه فقد بصره أو كاد - فأمر إخوته أن يذهبوا بقميصه الذى كان يلبسه حينئذ فيلقوه على وجه أبيه فتتم البشارة بعود بصره كما كان أو أحسن مما كان ، وفى قوله : (وَجْهِ أَبِى) دون أبيكم لطيفة يوسفية لا تخفى على ذى فطنة إنها تشير فيما تشير إلى أن الحنان الأبوى الذى فقدوه فى غيبة يوسف سيعود إليهم جميعًا بسببه فى لَمِّ الشمل واكتمال الأهل كما أشرنا إلى ذلك آنفًا فى تفسير قوله تعالى حكايةً عن أبيهم عليه السلام : « وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ » .

وقوله : (يَأْتِ بَصِيرًا) : جواب الأمر أى يَصِرْ بصيرًا .

(وَأتونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ) : المراد بأهلهم نساؤهم وذراريهم والعاملون معهم من خدمهم ، دعاهم للإقامة فى جواره آمنين .

ولم يذكر الإتيان بأبيه لا لكونه داخلا فى الأهل؛ فإنه يجل عن التبعية بل ليتفادى أمر الإخوة أن يأتوا بأبيهم لأن فيه نوع إجبار على مَنْ يؤتى به فهو عليه السلام موكول إلى اختياره ومحبته وشوقه ، ولا شك أن هذا من أدب النُّبُوَّةِ والبُنُوَّةِ مَعًا !

(وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾)

المفـردات :

(فَصَلَتِ الْعِيرُ) : خرجت القافلة؛ يقال فصل من البلد يفصِل فصولا إذا انفصل منه وجاوز حيطانه . (تُفَنِّدُونِ) : تنسبوننى إلى الفَنَد وهو الخرفُ وفساد العقل من الْهَرَم والشيخوخة ، وفى معناه ما قاله ابن عباس : لولا أن تُسَفِّهون . (ضَلَالِكَ) : ذهابك عن الصواب وبعدك عنه .

التفسير

٩٤ـ (وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ) :

ولما خرجت قافلة بنى يعقوب من عريش مصر أو حدودها قاصدة مكان يعقوب عليه السلام ، وكان قريبًا من بيت المقدس ، (قَالَ أَبُوهُمْ) : لمن كان بِحَضْرَتِهِ من ذوى قرابته ، (إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ) : أى إنِّى لأَشُمُّ ريح يوسف .

أوجد الله سبحانه ما عَبِقَ بالقميص[1] من ريح يوسف فى نفحة طيبة هبت على يعقوب فَعَرَف ريحه وبينهما مسافاتٌ بعيدة .

(لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ) : أى لولا تفنيدكم إيَّاىَ بنسبتى إلى الخرف من الشيخوخة لصدقتمونى فى أننى أجد ريح يوسف حقيقة غير متوهم ولا مخطىء .

قال مالك رضى الله عنه : إنما أوصل ريحه من أوصل عرش بلقيس قبل أن يرتد إلى سليمان عليه السلام طَرْفُه ـ انظر القرطبى ، وستأتى بقية الحديث عن ذلك فى التفسير .

٩٥ ـ (قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ) : أى قال الحاضرون عنده وقتئذ والله إنك لا تزال تعيش فى خطئك القديم بالإفراط فى محبة يوسف والإكثار من ذكره وتوقع لقائه ، وكانوا يظنون أن يوسف قد مات .

(فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾)

التفسير

٩٦ ـ (فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا) :

أى فلما جاء البشير الذى حمل قميص يوسف من بنى يعقوب ، ألقى القميص على وجهه امتثالًا لأمر يوسف ، فعاد يعقوب بصيرًا تام البصر كما كان أو خيرًا مما كان ، لمجرد إلقاء القميص على وجهه ، قيل : إن هذا البشير هو الذى حمل القميص الملطخ بالدم الكذب

(١) عَبِقَ بالقميص : أى لصق به .

بعد إلقاء يوسف فى البئر ، فقد روى عن ابن عباس أنه قال لإخوته : قد علمتم أنى ذهبت إلى أبى بقميص التّرحة فدعونى أذهب إليه بقميص الفرحة ، أراد أن يمحو السيئة بالحسنة.

فتركوه يتقدمهم استعجالا بنعمة البشارة ، وهم على أثره ، وحكى السُّدِّىُّ أنه يهوذا ، وأنه قال ليوسف : أنا الذى حملت إليه قميصك بدم كذب ، وأنا الذى أحمله إليه الآن لأسره وليعود إليه بصره ـ والله أعلم .

والظاهر أن يوسف عليه السلام علم بالوحى أن إلقاء القميص على وجه أبيه يرد إليه بصره بإذن الله تعالى .

وقيل : إن يوسف لما علم أن أباه عرا بصره ماعراه من كثرة البكاء عليه بعث إليه قميصه ليجد ريحه ، فيزول بكاؤه ويفرح قلبه فرحًا شديدا فعند ذلك يزول الضعف ويقوى البصر ، بل يقوى الروح والبدن كلاهما ، ولاعجب ، فللسرور والفرح بإذن الله آثار حسية ومعنوية لا تنكر .

(قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ) : هذا خطاب لبنيه القادمين وفى مقدمتهم البشير ، يذكرهم ـ وقد عاد بنعمة الله بصيرا ـ بما قاله لهم حين ابيضت عيناه من الحزن ، وهو أنه يعلم من أمر يوسف وحياته مالا يعلمون ، وكان هذا العلم إلهاما من الله عز وجل وطمأنَةً منه على أن يوسف لايزال حيا ، أما بكاؤه عليه فهو بكاء شفقة وحرمان من رؤيته يأسا من حياته ، ولهذا قال لبنيه : « اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ . . . » الآية .

(قَالُوا يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾)

التفسير

٩٧ - (قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا) :

طلبوا منه عليه السلام أن يستغفر لهم ، ونادَوه بعنوان الأُبُوَّة تحريكا للعطف والشفقة ، وعلَّلوا ذلك بقولهم :

(إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ) : مذنبين متعمدين ، يرجون بذلك الاعتراف أن يصفح عنهم وَيستَغْفِرَ لَهُمْ فإن من اعترف لأبيه بذنبه نادما ، كان أدنى إلى عفوه واستغفاره الله له .

قال القرطبي : وإنما سألوه المغفرة لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن مالم يسقط المأثم عنهم إلا بإحلاله . وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلما فى نفسه ، أو ماله أو غير ذلك ظالما له ؛ فإنه يجب عليه أن يتحلل له ويخبره بالمظلمة وقدرها ، ثم قال : وفى صحيح البخارى وغيره عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت له مظلمة لأخيه من عِرْضِه أو شيء فَلْيَتَحَلَّلْهُ منه اليوم ، قبل ألا يكون دينار ولادرهم ، إن كان له عمل صالح أُخِذَ منه بقدر مظلمته[1] وإن لم يكن له حسنات أُخِذ من سيئات صاحبه فَحُمِلَ عليه » . - انظر القرطبى. والمراد بتحلُّلِه منه اليوم أن يستبرئ منه ذمته فى الدنيا .

٩٨ - (قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى) :

اعترفوا لأبيهم بذنوبهم كما اعترفوا لأخيهم بها ولكن أخاهم بادر بالاستغفار لهم وهم لم يطلبوه منه ؛ وأما أبوهم فوعدهم باستغفار ربه لهم فى المستقبل ، وختم وعده بهذه الجملة المؤكدة بعدَّة تأكيدات فقال :

---

(١) مظلمة (بكسر اللام) وحكى فتحها .

(إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) : وبذلك تم الجوابان الحكيمان ؛ جواب الصديق وجواب أبيه - عليهما السلام - على اعترافات إخوة يوسف بالذنب ، وقد عرف من جواب الصديق أنه عفا عنهم فورًا وعرف من جواب أبيه أنه وعد بالاستغفار لهم ، ولم يعجل بالعفو عنهم ، وعن السر فى ذلك الاختلاف أجاب السيد محمد رشيد رضا فى تفسيره الخاص بسورة يوسف بما خلاصته : أنَّ حال يوسف مع إخوته هى حال الحاكم القادر ، بل الملك القاهر مع المسىء إليه الضعيف لديه ، الذى كبرت إساءته فاستحيا من طلب غفرانها ، فتبرع أخوهم بغفرانها تأمينا لهم من خوف الانتقام وكان قادرًا عليه ، وتعجيلا لهم بسرور الحياة التى جعل الله أزمتها فى يديه ، فكان المثل الأعلى فى حسن الأُسوة ، وما ينبغى أن يكون عليه الإخوة ، وأما حال أبيهم معهم فإنها حال المربى المرشد للمذنب الذى لايخشى منه انتقاما ، وليس من حسن التربية أن يُرِيَهُم أن ذنبهم هيِّنٌ لديه ، فليس بينهم وبين غفرانه لهم إلا كلمة يقولونها بألسنتهم ، على أن ذنبهم كان موجها إليه وإلى يوسف وأخيه ، فمن العدل أن يكون استغفاره لهم ، بعد علمه بحالهم مع أخويهم ولم يكن على علم بعفو يوسف عنهم .

ثم إن ذنوبهم من الذنوب العِظام التى طال عليها الأَمد ، والتى لاتغفر - بحسب شرع الله وسنته - إلاَّ بتوبة نصوح تجدد حياتهم . اه ماقاله السيد رشيد ملخصا هذا ، وقد رُوِىَ عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم أن يعقوب عليه السلام أَخَّر الاستغفار لهم إلى السَّحَرَ لأن الدعاء فيه مستجاب ، وروى عنه أيضا أنه أَخَّرَه إلى ليلة الجمعة ، وفى رواية عن طاووس سحر ليلة الجمعة ، وجاء ذلك فى حديث طويل رواه الترمذى وحسَّنَه عن ابن عباس برفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾)

المفردات :

(آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ) : ضمهما إليه .

التفسير

٩٩ - (فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ . .) الآية .

هُنا كلام مطوى دل عليه السياق ومعناه ؛ أنَّ إخوة يوسف بَلَّغُوا أباهم وسائر أهلهم أن يأْتوا إليه جميعا ليقيموا معه استجابة لطلبه ، وأخبروهم بمكانة يوسف ومنزلته فى مصر ، وأنه الحاكم المفوض فيها من قبل الملك . لذلك ارتحلوا من بلاد كنعان قاصدين إلى مصر حتى بلغوا مقَرَّ الملك .

(فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ) : استقبلهم استقبالا كريما بدأه بأن :

(آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ) : أباه وأمه ، وكانت على قيد الحياة كما هو ظاهر القرآن الكريم - وقيل إنها ماتت وهذه أختها . وكان أبوه قد تزوجها بعد وفاة أمه . والخالة بمنزلة الأُم ، كما أن العم بمنزلة الأب ، ولكننا نرجح الظاهر من النص ، لأنه لم يثبت لدينا مايخالفه ، والمراد من إيوائهما إليه أنه جمعهما معه فى قصره الخاص به ، تكرمةً لهما ومبالغةً فى البرِّ بهما ، وقال لهما ولسائر أهله :

(ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ) : أمناً عامًّا شاملا ، على أنفسكم ومواشيكم من الجوع والخوف وسائر المكاره . ولعل سنى القحط لم تكن انتهت بعدُ . ولاغرابة فى هذه السماحة والكرم من يوسف عليه السلام ، فهو كريم من سلالة رسل كرام[1] .

---

(١) روى البخارى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم . قال : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » .

ومعنى قوله عليه السلام : «ادْخُلُوا مِصْرَ» وهم قد دخلوها ـ معناه : أقيموا فيها كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وكأن الأمر بدخولها عبارة عن الإذن باستيطانها .

وقيل إن يوسف عليه السلام لما علم باقترابهم خرج يتلقاهم فى موكب عظيم ، وضرب ضربا على مقربة من حدود مصر للنزول فيه، وفى هذا المنزل آوى إليه أبويه . وقال لهما لبقية الركب : «ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ». وتعليق دخولهم آمنين ، بالمشيئة الإلهية للتيمن والتبرك ، وللتبرؤ من حوله عليه السلام ومشيئته وقوته ، إلى حول الله تبارك تعالى ومشيئته وقوته وفضله العظيم .

(وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾)

المفردات :

(الْعَرْشِ) : سرير الملك . (الْبَدْوِ) : البادية . وأصل البدو المبسوط من الأرض ، سمى بذلك لأن مافيه يبدو للناظر لعدم مايواريه .

(نَزَغَ) : أفسد وأغرى . وأصله من نزغ الرائض الدابة ؛ إذا همزها وحملها على الجرى .

التفسير

استقبل يوسف أبويه وأهله بعد غيبة طويلة حدثت فيها تلك الأحداث التى مر بيانها فى السورة الكريمة .

١٠٠ - (وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ) : وخَصَّ أبويه بمزيد من التّجلة والإكرام ، فأجلسهما على سريره الذى يجلس عليه لتدبير الملك إذ هو الملك صاحب السلطان فى الحقيقة .

(وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً) : أى وخرَّ أبَوا يوسف وإخوته له خاضعين . وصورة الخضوع لم يأتنا بها نص شرعى . فتحمل على ماكان معروفا يومئذ فى تعظيم الملوك والله تعالى أعلم .

أما القول بأن سجودهم هذا كان لله ، وإليه سبحانه يعود الضمير فى قوله : (وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا) فينافيه ماجاء فى أول السورة : « وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » .

قال القرطبى : وأجمع المفسرون أن ذلك السجود على أى وجه كان فإنما كان تحيّة لا عبادة . وعلى أثر سجودهم هذا ذكَّر يوسف أباه برؤياه فى صباه .

(وَقَالَ يَا أَبَتِ هذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ) : أى أن هذا السجود منكما ومن إخوتى هو المآل الذى آلت إليه رؤياى التى رأيتها فى صغرى إذ « رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ » .

(قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا) : أى أمرًا واقعًا لاريب فيه وقد رأيتموه الآن رأى العين . فإخوتى مثال الكواكب الأحد عشر وأنت وأمى مثال الشمس والقمر .

ثم أثنى على ربه شاكرًا لأنعمه فقال :

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِى) : ربى إحسانًا عظيمًا .

(إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ) : معززًا مكرمًا . إلى عرش الملك والسيادة .

(وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ) : حيث كنتم تعيشون فى شظف البادية وخشونة العيش ، واضطراب الأمن — إلى الحضر — حيث تعيشون فى رغد واستقرار آمنين .

قال الزمخشرى : كانوا أهل عَمَد[1] وأصحاب مواش يتنقلون فى الحياة والمناجع : ا هـ

وفى الآية إشارة إلى تفضيل الحضارة على البداوة ولم يذكر عليه السلام خروجه من الجب لئلا يُخجل إخوته بعد أن قال لهم : « لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُم » . ثم أتم حديثه لأبيه قائلًا :

(مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِى وبَيْنَ إِخْوَتِى) : أى وقد أحسن بى ربى وأنعم على بهذه النعم من بعد ما أفسد الشيطان بينى وبين إخوتى ، حيث أتلف عاطفة الأُخوة وقطع مودة القربى ، فأنت ترى من حديث يوسف عليه السلام أنه جعل الإغراء بالشر والقطيعة مشتركًا بين الشيطان وبين إخوته فتقع تبعته عليه وعليهم ، ليخفف بذلك شعورهم بالندم على ما اقترفوه فى حقه ، وهذا من كمال أدبه وتواضعه وكرمه .

ثم أشار إلى لطف الله وتدبيره له حتى بلَّغه هذه المنزلة فقال :

(إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِمَّا يَشَاءُ) : أى لطيف التدبير لما يشاؤه : حتى يجىء على وجه الحكمة والصواب ، فإذا أراد أمرًا هيأ له أسبابه وقدَّره ويسره ، وإن كان فى غاية البعد عما يخطر بالبال .

وهل كان يخطر بالبال أن الإلقاء فى الجب يفضى إلى السجن وأن السجن يفضى إلى العزة والملك ؟ !

(إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ) : بمصالح عباده . (الْحَكِيمُ) : فى أقواله وأفعاله وقضائه وقدره .

---

(١) أى أصحاب خيام تنصب وتقام على عمد .

(* رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ (١٠١))

المفردات :

(تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) : تفسير ما غمض منها ، والمراد هنا تفسير الأحلام .

(فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) : خالقهما على غير مثال سابق .

(وَلِيِّى) : ناصرى ومعينى .

التفسير

غمر الله سبحانه وتعالى يوسف بنعمه الجزيلة حيث نَجَّاه من تآمر إخوته عليه ، وعصمه من السوء والفحشاء ، ورد من كيد امرأة العزيز وصواحبها . وبرأه مما اتَّهَمَتْهُ به ، وأخرجه من السجن عزيزًا كريمًا ، وبوأه من الملك ، وجمع بينه وبين والديه ، وأصلح بينه وبين إخوته ، فاتجه إلى ربه بالحمد والثناء ضارعًا إليه أن يتمّ نعمته عليه فى الآخرة كما أتمها عليه فى الدنيا قائلًا :

١٠١ - (رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ) :

يا إلٰهى يا من ربيتنى وكفلتنى ، وأنعمت علىّ فوهبتنى نصيبًا وافرًا من الحكم والسلطان وعلمتنى مالم أكن أعلم من تفسير بعض الأمور الغيبية وشرح الأحلام الغامضة .

(فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّى فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) :

أى يا خالق السموات والأرض على غير مثال سبق ، فكانت على هذا النحو العجيب ، ورفعت كل كوكب فى السماء فى فلكه المرسوم ومداره المعلوم « وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » . إنك متولى أمرى فى الحياة الدنيا وفى دار البقاء ، أضرع إليك خاشعًا - داعيًا إياك :

(تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ) :

أى أسألك أن تتوفانى مؤمنًا بك مخلصًا لك وألحقنى يارب بالصالحين من عبادك .

وفى طلب يوسف من الله سبحانه أن يلحقه بالصالحين إشارة إلى أن مرتبة الصلاح رفيعة القدر وأن طلبها لايقتصر على المؤمن العادى بل تهفو إليها نفوس الأنبياء .

(ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾)

المفـردات :

(أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ) : أحكموا تدبيرهم .

(يَمْكُرُونَ) : يتآمرون وَيَحْتالُون .

التفسـير

ماكان النبى صلى الله عليه وسلم يعلم أخبار يوسف ولاغيره من الأنبياء السابقين إلا بوحى من الله تعالى ، ولهذا عقب ماسبق من قصة يوسف بقوله جل من قائل :

١٠٢ ـ (ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ) :

أى هذا القصص تناول أحداثًا تاريخية تفصلك عنها آلافُ السنين، فهو من أخبار الغيب ، أوحيناها إليك ليعلم قومك ويعلم أهل الكتاب أنك صادق فيما ترويه عن الله وكلهم يعلمون أنك أمى لاتقرأ الكتاب مطلقا كما قال تعالى : «وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ[1]» .

(وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ) :

أى وما كنت يامحمد حاضرا مع إخوة يوسف حينما أجمعوا أمرهم ، وأحكموا تدبيرهم على الكيد له عليه السلام فى خبث واحتيال ، حيث تآمروا على إلقائه فى الجب ، وادعاء أن

(١) سورة العنكبوت ، الآية : ٤٨

الذئب أكله ، وإحضار قميصه لأبيه ملوثا بدم كذب ، فروايتك لتلك الأحداث شاهدة بأنك تلقيتها من العليم الخبير الذى أنزل عليك القرآن مشتملا عليها وعلى غيرها من أحداث القصة بتفصيل دقيق محكم .

وكما أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن عند إخوة يوسف وهم يمكرون به ، فإنه لم يشاهد سائر أحداث القصة التى جاءت بها السورة ، ولم يكن عند ذويها وقت حدوثها . وإنما اكتفى النص بما كان من إخوة يوسف لأنه مفتاح الأحداث كلها ، فهو رمز إليها ، ألا ترى أنه قد جاء عقب قوله سبحانه : (ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ) . أى ذلك الذى تقدم فى السورة من أحداثها .

ومع أن المفسرين قد أجمعوا على إرجاع الضمير فى (لَدَيْهِمْ) إلى إخوة يوسف لمكرهم به فإنه يمكن إرجاعه إلى جميع من مكر به ، سواء كانوا إخوته أو امرأة العزيز وصاحباتها أو غيرهم .

(وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾)

التفسير

١٠٣ - (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) :

كان صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على إيمان قومه ، وكان يرجو هدايتهم بعد سماعهم قصة يوسف الموافقة لما فى التوراة ، فلما لم يؤمنوا نزلت هذه الآية يواسى بها الله رسوله وَيُسَرِّى عنه مايقاسيه من أحزان لانصراف معظم أهل مكة عن دعوة الحق التى جاءهم بها ، وإمعانهم فى المكابرة والضلال مع ظهور آياتها وبراهينها ، فيُقَرِّرُ له سبحانه أن هذه الظاهرة هى طبيعة معظم الناس لا أهل مكة وحدهم ، فكأنه تعالى يقول لرسوله : وما أكثر أهل الأرض بمؤمن ولو حرصت على إيمانهم ، وبالغت فى إقامة الحجج والبراهين لهم ، فإن عقولهم تتحكم فيها أهواؤهم وتقليدهم لآبائهم .

فليس غريبا أن ترى معظم قومك « يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَاتَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ »[1] . « فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ »[2] : « وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ »[3].

١٠٤ - (وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) :

إنك تدعوهم إلى مافيه فلاحهم فى الدنيا والآخرة وتهديهم إلى الرشاد ، وتخرجهم من الظلمات إلى النور ولا تطالبهم بأجر يقدمونه إليك نظير هدايتهم وإرشادهم ، فإنما أجرك على الله وحده وما الكتاب الذى أنزله الله عليك إلا تذكرة لأصحاب العقول الراجحة والبصائر المميزة من أهل الأرض جميعا لعلهم يعتبرون ويتعظون ،وليس خاصا بأهل مكة « وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ »[4] .

(وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾)

المفردات :

(وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ) : وَكم من علامة دالة على وجود الصانع ووحدته وقدرته وسائر صفاته .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية : ٦

(٢) سورة فاطر ، من الآية : ٨

(٣) سورة النمل ، الآية : ٨١

(٤) سورة ص ، الآية : ٨٨

(مُعْرِضُونَ) : منصرفون . (غَاشِيَةٌ) : كارثة كبرى تغمرهم .

(السَّاعَةُ) : القيامة . (بَغْتَةً) : فجأة دون توقع أو انتظار .

التفسير

١٠٥ - (وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) :

جاءت هذه الآية الكريمة لتبين أن قريشا لم تكتف بالإعراض عن القرآن الكريم ، بل يعرضون أيضا عن آيات الله الكونية الكثيرة التى بثها فى آفاق السموات وأرجاء الأرض والتى تدل على وحدانية الله وسائر كمالاته ، وتستلزم إفراده تعالى بالعبادة ، وكلما مروا عليها أغمضوا عيونهم وكفوا بصائرهم ، فلاهم آمنوا بالآيات القرآنية ولا تدبروا الآيات الكونية ، وإنما آثروا العمى على الهدى وفضلوا الضلال على الرشاد فى عناد ولجاج .

« أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ »[1] .

١٠٦ - (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ) :

وما يؤمن أكثر هؤلاء بالله تعالى وأنه هو الخالق ، إلاَّ وكان إيمانهم به مشوبا بالشرك ، فإذا سألتهم من خلق السموات والأرض قالوا خلقهن الله وهم مع ذلك يشركون به فى العبادة .

وفى الصحيحين أن المشركين كانوا يقولون فى تلبيتهم : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك » .

١٠٧ - (أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللهِ) : أى أن هؤلاء المعرضين عن آيات الله المنزلة وآياته الكونية ، يعرضون أنفسهم لغضب الله وعذابه الشديد فى الدنيا والآخرة

---

(١) سورة البقرة ، آية ١٧٥ .

فهل أمنوا أن ينتقم الله منهم فى الدنيا فيصيبهم بكارثة تغشاهم وتبيدهم ـ مثل الزلازل والبراكين والشهب والصواعق والأعاصير والعواصف .

(أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) :

وهل أمنوا أن تنتهى حياتهم فجأة بأن تباغتهم الساعة بأهوالها وشدائدها دون شعور بمقدمها وقبل أن يتوبوا وينيبوا إلى الله . وفى هذا المعنى يقول الله تعالى :

« بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ »[1] .

(قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾)

المفردات :

(سَبِيلِى) : طريقى وطريقتى .

(عَلَىٰ بَصِيرَةٍ) : على يقين ناشىء من وحى الله وآياته وحججه .

التفسير

١٠٨ ـ (قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِى أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى) :

قل يا محمد لهؤلاء المعاندين المكابرين هذه هى طريقتى ومنهجى أدعو إلى عبادة الله وحده على يقين ثابت ، ناشىء عن وحى الله تعالى ، وقائم على الحجة البينة والبرهان الواضح أدعو إلى الله كذلك أنا ومن اتبعنى من المؤمنين .

وقد استفيد من الآية الكريمة أن القادرين على الدعوة إلى الله تعالى من علماء المسلمين ينبغى أن يتحملوا نصيبهم فيها ، ويقوموا بها خير قيام ، كما قام بها أسلافهم من قبل.

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٤٠

(وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

أى وقل لهم يامحمد أُنزه الله وأُجله عن أن يكون له شريك أو نظير أَوْ وَلَدٌ أو صاحبة ولست أنا ولا أصحابى من المشركين لا شركًا خفيًّا ولا شركًا ظاهرًا ، بل نعبد الله . « مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ[1] » .

وهذا هو المنهج القويم ، والصراط المستقيم .

(وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾)

التفسير

١٠٩ - (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى) :

لَسْتَ - يا محمد- بدعًا من الرسل فجميع من أرسلناهم قبلك بشر لا ملائكة أوحينا إليهم شرائعنا وأمرناهم بإبلاغها إلى أقوامهم وهم ليسوا غرباء عنهم بل هم منهم يتحدثون بألسنتهم كما قال تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ »[2] :

فكل قوم يعرفون رسولهم وما اشتهر به بينهم من الصدق والأمانة حتى لا تكون لهم حجة على تكذيبه والإعراض عنه ، وكان الرسل من أهل القرى دون أهل البوادى ، لأن أهل القرى فيهم عقل وحلم ، وأهل البوادى على العكس منهم .

(١) سورة غافر ، من الآية : ١٤ (٢) سورة إبراهيم ، الآية : ٤

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ) :

أقعد قومك فلم يتنقلوا فى أرجاء الأرض ليروا كيف كان مصير الأمم السابقة بعد ما كذبوا رسلهم وأصروا على تكذيبهم ، كلا . فإنهم ساروا فى الأرض وعرفوا أنه تعالى أصابهم بالهلاك والتدمير والاستئصال ، وهم يمرون عليهم فى أسفارهم كما قال تعالى :

« ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ »(١)

فلماذا لا يتعظون بما شاهدوا .

(وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ) :

أى ولثواب الدار الآخرة للمتقين خير وأبقى من لذات الدنيا الفانية ، وشتان بين دار الفتنة والابتلاء والزوال ، ودار الخلد والبقاء والنعيم المقيم ، كما قال سبحانه : « لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ »(٢)

فهلا استعملتم عقولكم فاعتبرتم بأحداث الحياة وعلمتم أن العاقبة للمتقين .

(حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾)

المفردات :

(اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ) : أغرقوا فى اليأس والقنوط .

(وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا) : أى رجح عندهم أن نفوسهم حدثتهم بالنصر وكانت كاذبة فى حديثها . (بَأْسُنَا) : عذابنا .

(١) الصافات ، الآية ١٣٦-١٣٧

(٢) آل عمران ، الآية ١٥

التفسير

١١٠ - (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) :

هذه الآية مرتبطة بجمل مقدرة دل عليها السياق ، والتقدير : لاتَغْتَرَّ قريش بما هي فيه من السلام وعدم العقاب على كفرهم حتى الآن ، فإن من قبلهم من الكفار قد أُمهلوا ، حتى إذا أيس الأنبياء المرسلون إليهم من إيمانهم لتماديهم فى الطغيان والتكذيب من غير وازع وتوهموا أن نفوسهم كذبت عليهم حين توقعت النصر على من كفر بهم وعقابهم فى الدنيا - حتى إذا حدث كل ذلك - جاءهم نصر الله فجأة فأنزل الله بهم العذاب وَنَجَّى الله منه من يشاء إنجاءه وهم المرسلون ومن آمنوا بهم ، ولا يمنع أحد عذاب الله عن القوم الذين أجرموا بكفرهم إذا قدره عليهم ، فاعتبروا يا أهل مكة بسنن الله فيمن كان قبلكم ، واحذروا أن يحل بكم ما حل بهم ، فإن الله ينصر رسله ولو بعد حين .

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾)

المفردات :

(عِبْرَةٌ) : عظة . (لِأُولِي الْأَلْبَاب) : لأصحاب العقول .

(يُفْتَرَى) : يخترع ويلفق . (بَيْنَ يَدَيْهِ) : ما تقدم عليه .

التفسير

١١١ - (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ) :

انتهت قصة يوسف عليه السلام بهذه الآية الكريمة ، التى أبرزت الهدف منها ومن أمثالها ، وهو العظة والاعتبار والإيقان بأن العاقبة للمتقين ، وأن الهلاك والدمار للمجرمين وهى نهاية يدركها أصحاب العقول الراجحة والبصائر المستنيرة الملهمة .

(مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى) :

ما صح ولا استقام عقلا أن يكون هذا القرآن الكريم حديثًا يفتريه بشر على الله فيما جاء به من قصص الأمم الخالية التى بعث الله رسله إليها ، ولا فيما جاء به من تشريعات وعقائد وأخلاق فيها صلاح أمور الدنيا والآخرة ، ولا فيما اشتمل عليه من أعلى درجات البلاغة والفصاحة فإن ذلك كله فوق طاقة الإنس والجن . « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »[1] .

فكيف يستقيم قول المشركين فيما يحكيه الله عنهم بقوله : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا »[2] .

(وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) :

أى ولكن أنزل الله القرآن على رسوله الصادق الأمين مصدقًا للكتب السماوية التى بين يديه أى التى سبقته ، ومؤيدًا لها فيما كلفت به البشر من عقائد وطاعة للخالق جل وعلا ، وما أمرتهم به من تنزيه له عن الشريك والصاحبة والولد ، وعن كل مالا يليق به من النعوت

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٨
(٢) سورة الفرقان ، الآية ٥

والصفات المنافية للربوبية ، كما أنزله تفصيلا لكل شيء يحتاج إليه في شئون الدين والدنيا والآخرة ، حيث ضمنه القواعد الكلية لها ، وأحال بيانها على نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله :

« وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ »[1] . وأنزله هدى للناس من الضلال والحيرة ، وإرشادًا لهم إلى سبيل السعادة ، وأنزله رحمة لقوم يؤمنون به ، ويسلكون سبيله ويهتدون بهديه .

---

(١) سورة النحل ، من الآية : ٤٤

سورة الرعد

أرجح الآراء أنها كلها مدنية وهى ثلاث وأربعون آية وسميت السورة بسورة الرعد إشارة إلى قوله تعالى فيها : « وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ »[1] .

مقاصد السورة :

١ ـ استهلت السورة بالإشارة إلى آيات القرآن الكريم المنزلة بالحق على سيد الخلق للهداية والإرشاد .

٢ ـ ثم أشارت إلى ما بثه الله فى السموات والأرض من آياته الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته وعظمته ، من سماء مرفوعة وعرش عظيم وأجرام فلكية مسخرة ، وأرض تجرى فيها الأنهار وتزدان بالحدائق الغناء والمروج الفيحاء .

٣ ـ ثم تناولت أحوال البشر وتنكر كثير منهم لآيات الله المنزلة وآياته الكونية مع أن الله مطلع على نياتهم وأقوالهم وأفعالهم ، وسيجزى كلا منهم بما يستحقه من جزاء .

٤ ـ ثم دعت البشر إلى أن يَفِيئوا إلى الصواب ، وأن يبادروا بإصلاح ما فى نفوسهم من فساد وتغيير ما فيها من انحرافات ، حتى يعينهم الله ويهديهم فإنه سبحانه « لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » .

٥ ـ ثم عادت السورة لتذكِّر البشر بآيات الله الكونية ـ وأنها كما تكون نِعَمًا تكون نِقَمًا ـ مثل الرعد والصواعق ، وكلها منقادة لإرادة الله خاضعة لمشيئته ، وبينت أن الذين يدعون من دونه ـ لا يستجيبون لهم بشىء ، ولا يملكون لهم ضرًّا ولا نفعًا ، وأنه لايستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور .

٦ ـ ثم وعدت الذين يستجيبون لدعوة ربهم بالمثوبة الحسنى ، وتوعدت من لايستجيبون لها بأن لهم سوء الحساب والخلود فى جهنم وبئس المهاد .

---

(١) من الآية : ١٣

٧ - ثم تحدثت عن أنه تعالى يبسط الرزق لمن يشاء ويضيّقه على من يشاء ، وأن الحياة الدنيا بجانب الآخرة ونعيمها ماهى إلا متاع قليل .

٨ - ثم ذكرت عناد المشركين بطلبهم من الرسول آية من ربه - وبينت أن هذا ضلال منهم وانحراف عن الآية الكبرى وهى القرآن ، وأنه تعالى يضل من يشاء من المنحرفين فلا يعينه ، ويهدى إليه من أناب ويعينه ، وأن القرآن هو ذكر الله وأنه تطمئن به القلوب .

٩ - ثم تحدثت عن عظمة القرآن وأن الكفار لم يقدروه قدره حيث اقترحوا غيره ، مع أنه جدير بأن تسير به الجبال وتقطع به الأرض ويكلم به الموتى .

١٠ - ثم نبهت الذين آمنوا إلى أنه تعالى لو شاء لهدى الناس جميعا ، وتوعدت الكافرين بقارعة تصيبهم أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله .

١١ - ثم تحدثت عن الجنة التى وعدها الله المتقين ، ووصفتها بالصفات الجليلة ، وبيّنت أن الذين آتاهم الله الكتاب من المخلصين يفرحون بالقرآن الذى أنزله الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن من أحزابهم من ينكر بعضه وهو مايخالف ضلالاتهم ، أو يغاير ماكان مشروعا لهم - مع أن لكل أمة رسولها وكتابها « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ». ونهته عن اتباع أهوائهم كالصلاة إلى بيت المقدس بعد تحويل القبلة ، وبينت أن الرسل السابقين جعل الله لهم أزواجا وذرية كما جعل لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلا وجه لاعتراض أهل الكتاب عليك يامحمد .

١٢ - ثم توعدت الكافرين ، وذكرت أن على الرسول البلاغ وعلى الله الحساب ، وأنه تعالى يحكم ولا معقب لحكمه ، « وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ». إلى غير ذلك من المقاصد الشريفة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾)

المفردات :

(الْكِتَاب) : الْقُرْآن . (الْحَقُّ) : الثَّابت .

التفسير

١ - (الٓمٓر) : تقدم الكلام على أمثالها فى أوائل سور : البقرة وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ، وهود ، ويوسف . وأرجح الآراء فيها أنها تشير إلى أن القرآن الكريم مركب من كَلِمَاتٍ ذات حروف كهذه الحروف التى ينظم منها العرب كلامهم ، فإن كانوا صادقين فى زعمهم أن محمدا تقوله وافتراه فليأتوا بمثله فهم أئمة الفصاحة والبلاغة فإذا عجزوا فمُحمد مثلهم لايستطيع أن يأتى بمثله وإذاكان كذلك وجب الإيمان بأنه تنزيل من حكيم حميد .

هذا إلى جانب مافى بدء الكلام بها من الغرابة الداعية إلى الانتباه واستماع مايليها من فنون الهدى والرشاد ، لعلهم يهتدون ويكفون عن الإعراض عن سماع القرآن العظيم .

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ) :

هذه آيات الكتاب العظيم الغنى عن الوصف من بين سائر الكتب ، الجدير باختصاصه باسم الكتاب .

(وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ) :

أى وهذا الكتاب الذى أنزله الله إليك يا محمد هو الحق الثابت المطابق للواقع فلا مجال للشك والارتياب من قومك فى صدوره إليك من ربك أيها النبى .

(وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) :

أى ولكن أكثر الناس الذين دعوتهم إلى الإيمان بهذا الكتاب الحق لا يؤمنون بأنه أُنزل إليك من ربك ، لإخلالهم بواجب النظر والتأمل فيه ، وانقيادهم لأهوائهم وشهواتهم ، وإيثارهم الضلال على الهدى ، والظلمات على النور فاصبر على أذاهم « . . . وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ »[1] .

(ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾)

المفردات :

(الْعَمَدُ) : بفتح العين والميم وضمهما هى الأساطين التى تحمل السقف جمع عمود .

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) : أى يقضى فيه ويقدره بحكمته .

(يُفَصِّلُ الْآيَاتِ) : يأتى بها مفصلة مبينة للاستدلال بها على كمال قدرة الله وحكمته .

(تُوقِنُونَ) : تصدقون تصديقًا جازمًا لاشك فيه .

التفسير

بعد أن ذكر الله أن آيات القرآن أنزلها على رسوله بالحق عقب ذلك بذكر آياته الكونية العظيمة التى تدل على وحدانيته وعظمته وقدرته وهيمنته على كل شىء فقال تعالى :

٢ - (اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) :

(١) سورة النحل من الآية : ١٢٧

إن الإنسان لينظر إلى السماء ومافيها من نجوم وكواكب فيأخذه الإعجاب بِسُمُوّها وعظمتها وجمالها واتساعها وإبداعها ، والقرآن يذكرنا بأن الله وحده هو الذى رفع هذه السموات فى آفاقها السامية الفسيحة بغير ارتكاز على عمد مرئية ، ولكن الله سبحانه وتعالى يمسكها فى أفلاكها ، ويدفعها فى مداراتها ، طبقًا لسنن كونية ثابتة أبدعتها قدرته سبحانه .

فقال جل شأنه : « إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ »[1]. وقال تعالى : « وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ »[2]

(ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ) :

المراد من الاستواء هنا الاستيلاء والسيطرة ؛ ومنه قول الشاعر :

استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق

والعرش هنا كناية عن الملك والسلطان ، والمعنى أنه تعالى هيمن وسيطر على ملك السموات بعد أن رفعها بغير عمد ، فلم يدع فيها لأحد غيره سيطرة عليها ولا تدبيرًا لشىء فيها ، فكما كان له الأمر فيها حين تقديرها خلقًا وإبداعًا فله الأمر والسلطان فيها بعد ذلك حفظًا وتدبيرًا ، لا يشاركه فى ذلك كله شريك «أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ »[3]

ومن العلماء من فسر العرش بأنه شىء عظيم لا يعلم كنهه غير الله ، مع تنزيهه جل وعلا من الجلوس عليه ، فإنه تعالى يستحيل عليه المكان ، وكل ما خطر ببالك فالله تعالى بخلاف ذلك ، فإذا عرفت أنه تعالى لا أول لوجوده ، وأنه سبحانه كان ولاشىء معه ، وأنه أوجد العرش واستحدثه بعد أن لم يكن ، عرفت أنه ليس بحاجة إلى عرش يجلس عليه كما يفعل الملوك ، فالعرش على تسليم أنه جرم عظيم ، خلقه الله لمصلحة ملكوته ، وقد استند أصحاب هذا الرأى إلى أحاديث منها ما ذكره البيهقى وأخرجه الآجرى وأبو حاتم البستى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِىِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ فِى أَرْض فَلاة ،

(١) سورة فاطر ، الآية : ٤١
(٢) سورة الحج ، الآية : ٦٥
(٣) سورة الأعراف ، من الآية : ٥٤

وَفَضْل الْعَرْش عَلَى الكُرسِيّ كَفَضْل الفَلاة عَلَى الْحَلقَة » . وتركوا علم ذلك وإدراكه إلى الله علام الغيوب .

(وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى) :

أى أن الله سبحانه خلق الشمس وهى نجم كبير وخلق القمر وهو كوكب صغير وسخرهما لينتفع البشر بنورهما وحرارة الشمس ذات المنافع الغزيرة ، فانظر إلى رحمة الله ، حيث جعل الشمس إذا غابت بالحجاب وغابت معها أنوارها ، أتبعها القمر حتى لا يحرم عباده من نور السماء ليلا ونهارًا ، وجعل كلا منهما يجرى فى فلكه المرسوم ومداره المعلوم إلى أَمَد مقدر وزمن محدود يعلمه سبحانه .

وقال ابن عباس : الأَجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التى ينتهيان إليها ولا يتجاوزانها .

يريد بذلك أن الشمس تقطع مدارها متنقلة فى أبراجها فى سنة شمسية . والقمر يقطع مداره متنقلا فى منازله فى شهر قمرى ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ »[١] . وذهب معظم المفسرين إلى أن الأَجل المسمى هو يوم القيامة يوم أن تكون السموات مطويات بيمينه سبحانه .

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ) :

والمعنى أن الله سبحانه يقدر الأُمور بمقتضى حكمته ويجريها طبقًا لسنته الكونية فى أرضه وسمائه فهو سبحانه يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، وغير ذلك من شئونه تعالى فى سمواته وأرضه ، تلك الشئون التى تحير العقول والأَلباب ولا تدخل تحت حصر ، وصدق الله تعالى إذ يقول : « يَسْأَلُهُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ »[٢] . وكما أنه تعالى يدبر الأَمر فإنه يفصل الآيات ويبينها فى كتبه المنزلة على رسله ويوجهنا إلى التأمل فيها ، والاعتبار بدلالتها ، فإنها تَدُلُّكَ على عظيم قدرته ، وجليل حكمته ، ووافر رحمته ونعمته ، وأن الذى بدأ الخلق قادر على

---

(١) سورة يس ، من الآية : ٤٠

(٢) سورة الرحمن من الآية ٢٩ .

إعادته ، وأن مصيرنا جميعًا إلى الله فنحن جميعًا منه وإليه ، فإذا انتفعنا بما فضله الله لنا من الآيات ،وعرفنا أننا سنلقى الله طال الزمن أم قصر ، فإننا نستعد لهذااللقاء بالإيمان الثابت والعمل الصالح والاستقامة على طريق الحق ، لننال ثوابه وننجو من عقابه .

(وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾)

المفردات :

(مَدَّ الْأَرْضَ) : بسطها . (الرَّوَاسِى) : الجبال . (يُغْشِى) : يغطى .

التفسير

٣ ـ (وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا) :

تابعت هذه الآية سرد آيات الله الكونية ، فذكرت أنه تعالى بسط الأرض أمام البصر ، وسوى معظم سطحها ، ليسهل الانتقال عليه من مكان إلى مكان ، كما قال سبحانه :

« وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا »[1] .

وليسهل على عباده زرعها والانتفاع بخيراتها ، ولا يتنافى ذلك مع كروية الأرض التى أشارت إليها الآية الكريمة : « يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ »[2] .

وسنعرض لها بالشرح فى موضعها إن شاء الله ، وكما سوى الله سطح الأرض جعل منها جبالا راسخة لتثبيتها فلا تموج ولا تضطرب ، حتى لا يهلك من على سطحها من الكائنات أثناء

---

(١) سورة نوح الآية ١٩

(٢) سورة الزمر من الآية ٥

اضطرابها وزلزالها ، قال تعالى : « أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ، وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا »[١] . ومن آيات الله الكونية التى أشارت الآية إليها تكوين الأنهار من الأمطار التى تهطل على سفوح الجبال ، فتشق طريقها فوق سطح الأرض ممتدة مئات أو آلاف الأميال ، ليرتوى منها عالم الإنسان وعالم الحيوان وعالم النبات .

(وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ) :

أى وجعل الله فى الأرض من كل أنواع الثمرات فردين متزاوجين ، أحدهما ذكرُ والآخر أنثى ، والذكر قد يكون منفصلا عن الأنثى كالنخل ، وقد يكونان فى شجرة واحدة كشجرة الذرة ، وهنا يتجلى الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم ، فما كان العرب يعلمون أن فى كل نبات أعضاءً للتذكير وأخرى للتأنيث ، يتم بينهما التلاقح فتثمر أطيب الثمرات ، ما كانوا يعلمون ذلك إلا فى نبات واحد هو النخل ، ولكن القرآن أنبأنا منذ أربعة عشر قرنًا بما اهتدى إليه العلم الحديث فى العصر الحاضر « سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ »[٢] .

(يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ) :

أى يجعل الليل يغطى ضوء النهار ويكسوه بظلامه ليستريح الناس من متاعبهم فى النهار ويدركوا رحمة ربهم بهم وقدرته على هذا الكون العجيب ، واكتفى بتغشية الليل النهار مع تحقق عكسه لأنه معلوم ، وتتابع الليل والنهار نعمة منَّ الله بها على خلقه ليتسنى لهم الكسب فى ضوء النهار والراحة تحت أسدال الظلام .

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) : إن فى هذه الآيات الكونية العديدة فى السموات والأرض لعلامات وبراهين دالة على وحدانية الله وقدرته وعظمته ، يدركها من استعملوا عقولهم وتركوا تقليد أهل الجهالة فى جهالتهم ، فمن شاء الهداية فأمامه آيات الله المنزلة وآياته الكونية ، وكلتاهما تدعو إلى الإيمان العميق «فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ »[٣]

(١) سورة النبأ الآيتان ٦ ، ٧ (٢) سورة يس ، الآية ٣٦

(٣) سورة الجاثية ، من الآية ٦

(وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾)

المفردات :

(صِنْوَانٌ) : جمع صنو ، وهو المثل ، ومنه الحديث الشريف : «عم الرجل صنو أبيه» . والصِّنْوُ أيضًا نخلتان أو أكثر تتشعب من أصل واحد ، وكما تُطلق كلمة الصنو على ماذكر ، يطلق عليه أيضًا : (صنوان) : روى عن البراء : الصنوان المجتمع ، وغير الصنوان المتفرق ، وقال النحاس : يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلة أخرى أو أكثر صنوان اهـ . راجع القرطبي .

التفسير

٤ - (وَفِى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ) الآية .

واصلت الآية الحديث عن آيات الله الكونية .

والمعنى : أنه يوجد فى الأرض قطع متجاورة متماثلة فى تربتها وانتفاعها بأشعة الشمس وفيها بساتين كثيرة مزروعة فى قطع الأرض المتجاورة ، وتشتمل على أشجار الكروم التى تثمر أنواع العنب والزبيب ؛ وتشمل أيضًا على الزرع الذى يثمر أنواع الحبوب والبقول ، وفيها النخل الذى يثمر البلح والرطب والتمر .

وبعض النخيل مفرد وبعضه متعدد على أصل واحد ، وهو الذى عبر عنه فى الآية بكلمة (صنوان) ، ونلاحظ فى الآية أنها لم تستوعب حاصلات البساتين ، بل ذكرت نموذجًا لما يتسلق ويقوم على عرائش ، وهو الأعناب ، وآخر للشجر الذى يقوم على ساق ، وهو النخيل الذى له جذوع صلبة وطويلة ، أما الزرع فإنه شامل لكل أنواع الحبوب والبقول .

(يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ) :

هذه الجملة مستأنفة للتعجيب من قدرة الله تعالى فيما يبدعه فى عالم البساتين ، حيث بينت أن هذا النبات والشجر على اختلاف أنواع كل منهما يسقى بماء واحد فى أرض متجاورة ومتشابهة فى التربة والجو ، ولكن الثمرات متنوعة فى الطعم والشكل واللون والرائحة ، وربما كان ذلك فى الشجرة الواحدة ولا شك أن هذا ناشئ من أن وراء الطبيعة ربا حكيماً ، هو الذى ينوع النواميس والطبائع ويبدع غير المألوف ، ويخالف المألوف ليعرفه عباده بما يبدعه لهم من هذه المؤتلفات والمختلفات ، ولو كانت الطبيعة هى الفاعلة لما وقع هذا الاختلاف ، بل لما وجد من ذلك شئ فإن الطبيعة لا عقل لها ولا إرادة ، ولهذا عقب الله تلك الجملة بقوله :

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) :

إن فى هذا التنوع والتعدُّد - مع وحدة الأصل والبيئة - لعلامات وشواهد يدركها أصحاب العقول الراجحة فيعلمون أن من ورائها قدرة الخلاق العظيم الذى أحسن كل شئ خلقه ، فيؤمنون وينقادون إليه ويعبدونه على الوجه اللائق بما له من عظمة وجلال .

(* وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾)

المفردات :

(وَإِن تَعْجَبْ) : العجب والتعجب كلاهما يستعمل على وجهين :

أحدهما فيما يستحسن ويحمد . والثانى فيما يكره وينكر .

(الْأَغْلَالُ) : جمع غُل بضم الغين . وهو طوق من حديد أو غيره يوضع فى العنق أو فى اليد فتشد به إلى العنق .

التفسير

(وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً . . .) الآية .

بينت الآيات السابقة دلائل قدرة الله فى السموات والأرض وأنها آيات لأصحاب العقول السليمة . والأفهام المستقيمة على عظمة قدرة الله وحكمته ، وأن من هذا شأنه فهو قادر على كل مقدور ، وجاءت هذه الآية للتعجب من إنكارهم للبعث مع مايشاهدون من المظاهر الكونية ، ولإنذارهم بالعذاب الدائم الذى لاغاية له جزاء تكذيبهم . والخطاب فى الآية للرسول أو لكل من يصلح للخطاب من العقلاء .

والمعنى : وإن تعجب من تكذيب المشركين بأمر المعاد مع ماشهدوه من دلائل قدرة الله فعجب لايوجد أشد منه قولهم فى إنكارهم للبعث

(أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ) :

هذا القول مشتمل على استفهامين من المشركين ، يقصدون بهما أقصى درجات الإنكار ، للعودة إلى الحياة مرة أخرى ، حيث يخلقون خلقًا جديدًا بعد أن تحللت أجسامهم ، ونخرت عظامهم ، وأصبحوا ترابًا تذروه الرياح ، ولو فكر هؤلاء المنكرون بعقولهم لعلموا أن من قدر على إنشاء تلك الكائنات وإبداعها من تراب ، فإنه قادر على إعادتها ، بل الإعادة فى نظر القياس أهون . وإن كان كل شىء أمام قدرة الله سواءً . فهو الذى يقول للشىء كن فيكون .

وقد عقب الله هذه الجملة التى نعت عليهم تكذيبهم بقوله :

(أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ) : أى هؤلاء المكذبون للبعث هم الذين كفروا بربهم ولم يؤمنوا به . إذ لو آمنوا به وبأنه خالق السموات والأرض - كما يجيبون إذا سئلوا - لعلموا أنه قادر على بعث الأجساد بعد استحالتها إلى تراب تفرقت ذراته . فهم ليسوا أشد خلقًا من السماء التى بناها ورفع سمكها وسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها .

ولما كان هذا الكفر مع وضوح الأدلة أمرًا منكرًا فظيعًا يستحقون عليه أشد العقاب أنذرهم الله سبحانه وتعالى بقوله : (وَأُولَـٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ) : أى أن جزاءهم يوم الحساب أن يسحبوا إلى النار بأطواق فى أعناقهم تحقيرًا لهم وتسفيهًا .

وقال بعض المفسرين هو تمثيل لحالهم الشنيعة فى الضلال وتقليد الآباء بحال المقيدين بالأغلال فى أعناقهم ، فهم مثلهم فى الحرمان من نعمة الحرية وكَبْتِ الإرادة ، وضيق آفاقها ، والحرمان من الخير ، وسوء العاقبة .

ثم ختمت الآية بقوله تبارك وتعالى :

(وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) : أى وأولئك المكذبون بالبعث الكافرون بربهم المكبلون بالأغلال فى أعناقهم – أولئك الموصوفون بهذه الصفات – هم أصحاب النار الملازمون لها – الماكثون فيها فلا ينفكون عنها ولا يخرجون منها أبدًا .

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦))

المفـردات :

(السَّيِّئَةِ) : العقوبة . (الْحَسَنَةِ) : العافية والسلامة .

(الْمَثُلَاتُ) : جمع مثله – بفتح الميم وضم الثاء . وهى العقوبة ؛ سميت بذلك لأنها تماثل الذنب ، والمراد بالمثلات فى الآية الكريمة عقوبات أمثالهم المكذبين قبلهم .

التفسير

٦ – (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ . . .) الآية .

كان الرسول صلوات الله عليه ينذر المشركين بالعذاب فى الدنيا والآخرة لإصرارهم على الكفر ، فكانوا يستعجلونه فى وقوعه استهزاءً به وطعنًا فى خبره فنزلت .

والمعنى : ويطلب منك المشركون يامحمد أن تعجل لهم بالعقوبة التى أنذرتهم بها . لإصرارهم على الكفر وتكذيب ماجئتهم به من عند الله، وكان عليهم أن يثوبوا إلى رشدهم ويعدلوا عن شركهم . ويطلبوا من الله سبحانه وتعالى السلامة والعافية . وماكان ينبغى لهم أن يؤثروا العقوبة على السلامة ،وهم يعلمون مما يشاهدونه حولهم من آثار ما أنزله الله من العقوبات بالكافرين قبلهم . كما حدث لعاد قوم هود ، ولثمود قوم صالح ، ولقوم لوط ولغيرهم وإلى ذلك يشير قوله تعالى :

(وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ) :

أى أنهم قد مضت من قبلهم عقوبات الأمم السابقة التى استأصلتهم . فما لهؤلاء لم يعتبروا بتلك الأمم ؟ فيكفوا عن الكفر والتكذيب حتى لايحل بهم ما حل بمن قبلهم من المكذبين .

ثم عقب الله سبحانه وتعالى هذه الجملة من الآية الكريمة بما يفتح باب الأمل للتائبين المستغفرين — ويحذر من شدة العقوبة للعصاة المصرين فيقول :

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ) :

أى أنه تعالى . صاحب مغفرة عظيمة وستر شامل لمن ظلموا أنفسهم بالذنوب والمعاصى . فلا يعجل لهم بالعقوبة ، بل يمهلهم ويؤخرهم لعلهم يتوبون ويستغفرون فيغفر لهم .

وكما أنه سبحانه صاحب مغفرة للناس وإن كانوا ظالمين . إن تابوا وأنابوا ؛ فإنه شديد العقاب لمن أصر على كفره وعصيانه كما قال تعالى فى سورة الحجر: « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ».وفى سورة الأنعام :« فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ » . إلى غير ذلك من الآيات التى تجمع بين الرجاء والخوف .

(وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾)

المفـردات :

(الَّذِينَ كَفَرُوا) : المراد بهم هنا كفارُ أهل مكة .

(لَوْلَا أُنزِلَ) : لولا بمعنى هلَّا ، فكلتاهما للحض والحث على فعل الشيء .

(آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ) : الآية ؛ العلامة ، والمراد بها هنا ما طلبوه من الخوارق مثل تفجير الينابيع والأنهار والرقى فى السماء .

التفسير

٧ - (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ) :

بعد أن حكى الله عن أهل مكة كفرهم بالبعث ، واستعجالهم بالعذاب الذى توعدهم الله به على لسان رسوله ، جاءت هذه الآية لبيان لون من ألوان كفرهم وعنادهم .

والمعنى : ويقول الذين كفروا بالقرآن من أهل مكة زاعمين أنه لا يكفى للدلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم : هلَّا أنزل عليه آية من ربه ، على منهاج الآيات الكونية التى أيد الله بها رسله السابقين ، كعصا موسى التى أبطلت سحر الساحرين ، وناقة صالح ، وإحياء الموتى بإذن الله على يد عيسى ، ولما كان هذا المطلب لا يخرج إلا من فم كافر لما فيه من التجنى على الحق ، فلذا حكى الله مقالتهم موصوفين بالكفر بقوله : (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا) بدلا من أن يعبر عنهم بأسلوب الإضمار : (وَيَقُولُونَ) والغرض من ذلك ذمهم بالكفر بهذا الكتاب المبين الذى تخر له صم الجبال ، ولو تفتحت على الحق قلوبهم ، وبرأت من الحقد نفوسهم ، لوجدوا السبيل إلى الهدى ميسرة بآياته ، فهى أجدى على الحق من تحويل الصفا إلى جبل من ذهب ، وتحويل صحرائهم إلى جنات تجرى من تحتها الأنهار

كما طلبوا ، فإن العقل البشرى قد شب عن الطوق ، والذى كان آية للأمم السابقة ، لا يصلح آية لأمة محمد التى فتح القرآن لها أبواب العلم ، وكشف لها آفاق المعرفة فلم يعد يفيدها ناقة تخرج من الصخر ، ولا يد تخرج من الجيب بيضاء من غير سوء ؛ ولا إبراء الأكمه والأبرص وإحياء ميت أو ميتين ، فكل ذلك لا يساوى إحياء القلوب باليقين ، وتنوير العقول بأشعة المعرفة ، ووضع المنارات على الطريق ليهتدى بها الناس إلى الحق سبحانه وتبرئته من الشريك والنظير . وتنزيهه عن الصاحبة وعن الولد ، وليهتدوا بها إلى أسرار الملك والملكوت ، فيعملوا للدنيا فى حدود ما هو حلال لهم . ولا عليهم من بأس أن يتوسعوا فى نعمه وزينته والطيبات من الرزق ما داموا يؤدون حق الله وحق المجتمع فيما رزقهم ربهم ، ويعملوا للآخرة . حيث لاينفعهم مال ولا بنون : إلا من أتى الله بقلب سليم .

وفى ذلك يقول النبى صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِىٌّ إِلَّا أُعْطِىَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ . وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِى أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَىَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . أخرجه البخارى ومسلم والنسائى .

ومن مميزات معجزة القرآن أنها باقية ما بقى الزمان . بخلاف معجزات الأنبياء السابقين ، فقد أصبحت خبرًا بعد عين ، وعرضة لإنكار المنكرين . وتكذيب المكذبين .

(إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ) :

أى ليس من شأنك يا محمد أن تقترح علينا الآيات ، أو تبلغنا اقتراح قومك لها ، فما أرسلناك إلا لإنذار الكفار سوء عاقبة ما هم عليه من الكفر ، وقد أيدناك بما يكفى الاستدلال به على نبوتك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وهو القرآن العظيم ، فما أنت إلا منذر لهم ولكل قوم كافرين ، بما جاء فيه من القوارع والنوائب التى تحل بهم إن أصروا على كفرهم . وهاد مرشد إلى طريق السلامة فى الدنيا والآخرة بما جاء فيه من الآيات ، فإن سلكوه كانت غايتهم السلامة والسعادة الأبدية ، وإن أعرضوا عنه كانت غايتهم الندامة والشقاوة الأبدية ، فلا تكترث باقتراحهم الآيات عنادًا ، فلكل أمة رسولها مؤيدًا بالآيات اللائقة بها .

ثم عقب الله هذه الآية بما يدل على كمال قدرته وشمول علمه وقضائه وقدره المبنيين على الحكم والمصالح ، تنبيهًا على أن تخصيص كل قوم بنبي ، وكل نبي بجنس معين من الآيات إنما هو للحِكَم الداعية إليها ، وذلك بقوله سبحانه :

(ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾)

التفسير

٨ - (اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ) :

لمَّا تقدم إنكارهم البعث . وكان من أقوى شبههم ما شهدوه من تفرق الأجزاء وزوال صفاتها . نبه سبحانه بهذه الآية على إحاطة علمه جل شأنه . فلا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء دحضًا لشبهتهم . وإزاحة لها .

والمعنى : الله يحيط علمه بما تحمله الحوامل من مبدإ الحمل إلى زمن الولادة فلا يخفى عليه شىءٌ مما يتعلق بذات الجنين أو صفاته من كونه ذكرًا أو أنثى ، أو صبيحًا أو قبيحًا أو صالحًا أو طالحًا أو شقيًّا أو سعيدًا .

(وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ) : أى يعلم ما تنقصه الأرحام فى ذات المولود أو مدته نتيجة لما يغيض له فى أطواره من أسباب تجعله ينزل سقطًا أو لأقل من مدة الحمل الغالبة أو لأكثر منها أو لما أُلف وعهد فيها .

(وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ) :

أى وكل شىء فى علم الله وتقديره من الأعيان والأعراض له فى كل مرتبة من مراتب التكوين قدر معين فى ذاته وفى زمنه ، وحاله لا يتخطاه ولا يجاوزه بأى حال من الأحوال .

وذلك عام فى الأجنة والآجال والأرزاق وغيرها. وفى الحديث الصحيح: «أن إحدى بنات النبى صلى الله عليه وسلم بعثت إليه أن ابنًا لها فى الموت وأنها تحب أن تحضره. فبعث إليها: « إنَّ للَّه ما أخذ وله ما أعطى وكل شىء عنده بأجل مسمى فمروها فلتصبر ولتحتسب ». والحديث لمسلم ورواه البخارى فى كتاب الجنائز بمخالفة يسيرة. والمقصود بإحدى بنات النبى صلى الله عليه وسلم زينب امرأة أبى العاص بن الربيع .

٩ - (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ . . .) الآية .

أى يعلم سبحانه وتعالى الغائب عن الخلق والظاهر لهم. فينفرد بكل باطن خفى - لايشاركه فى علمه به أحد، وأما مايقوله أهل الطب من استدلالهم فى طلبهم على ما خفى بأمارات وعلامات فذلك ظنى لايقينى[1] . والتعبير عن الغائب والحاضر بالمصدر مبالغة فى كون الغائب كأنه نفس الغيب لشدة خفائه . وكون الحاضر لقوة وضوحه كأنه نفس الشهادة والوضوح . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن الغيب السِّر والشهادة العلانية .

(الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ) : الذى تعالى قدره وعظم شأنه، واستعلى على سواه فى ذاته وصفاته وأفعاله .

١٠ - (سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ) :

بعد ما بين الله تعالى أنه عالم بجميع أحوال الإنسان فى مراتب فطرته ومحيط بعالمى الغيب والشهادة ، جاءت هذه الآية لبيان أنه لا فرق فى علمه بين السِّرِّ والعلن ، والجلى والخفى ، فيستوى فى علمه من أسر القول منهم وأخفاه عن غيره ، ومن جهر به وأذاعه خيرًا كان أو شرًا، فيعلم سر الأول كعلمه بجهر الثانى من غير تفاوت بينهما فى كيفية علمه بهما ودرجته ، كما يستوى فى علمه من يبالغ فى الاستتار والتخفى فى ظلمة الليل ، ومن هو ساربٌ وبارز بالنهار .

---

(١) أما الآلات التى اخترعت لكشف ما فى جوف الأرض من معادن وبترول فإن العلم بوساطتها لايعتبر علما بالغيب، فقد أصبح الغيب فى حكم الظاهر بوساطة هذه الآلات ولذا يستوى فى العلم بوساطتها كل من عرف طريقة استعمالها .

وقال الأخفش وقطرب : المستخفى بالليل : الظاهر ومنه خَفَيْتُ الشئ وأخفيته أى أظهرته والسارب المختفى بالنهار يدخل سربًا يختفى فيه – انتهى بتصرف. وتلك عادة لبعض العابثين يختفون نهارًا . ويظهرون ليلا ، ليأخذوا الناس على غرة وهؤلاء وأمثالهم كغيرهم يحيط بهم علمه مهما تذرعوا به من إحكام التخفى بمختلف الوسائل والأساليب .

(لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾)

التفسير

١١ – (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ) :

أى لله ملائكة يعتقبون على حفظ عبده من جميع جهاته يأتى بعضهم إثر بعض بدون إبطاء . كأن كلا منهم يطأ عقب الآخر لشدة قربه منه يتناوبون عليه بالليل والنهار لوقايته من كل ضرر يمسه . أو سوء يلحق به وذلك الحفظ من أمر الله ، أى بسبب أمر الله لهم به . فإذا جاء قدر الله تخلوا عنه[1] . ويجوز أن يكون المعنى : يحفظونه إذا أذنب من بأس الله بالاستمهال والاستغفار له . كما يتعاقب عليه ملائكة آخرون لإحصاء كل عمل له خيرًا كان أو شرًّا . فهو بين أربعة من الملائكة حافظين وكاتبين بالليل ومثلهم بالنهار ، يجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر . وفى الصحيح : « يَتَعَاقَبُونَ فِيكم مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِى صَلَاةِ الصُّبْحِ وَصَلَاةِ الْعَصْرِ ، فَيَصْعَدُ إِلَيْه الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُم ، فَيَسْأَلُهُم

(١) قال أبو مجلز : جاء رجل من مراد إلى على فقال : احترس فإن ناسا من مراد يريدون قتلك ، فقال : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مالم يقدر ، فإذا جاء القدر خليا بينه وبين قدر الله ، وإن الأجل حصن حصينة » أخرجه الإمام مسلم .

وَهُو أَعْلَمُ بِهِمْ كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِى ؟ فَيَقُولُونَ آتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ وَتَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ ».

أخرجه البخارى فى كتاب مواقيت الصلاة . باب فضل صلاة العصر .

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى إحاطة علمه بالعباد وأن لهم معقبات يحفظونه من أمره ، نبَّه على أن النجاة فى لزوم الطاعة والوبال فى اختيار المعصية فقال ـ جل شأنه ـ :

(إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) :

أى جرت السنَّةُ الإلٓهيةُ بأنه تعالى لايبدل ما بقومٍ من نعمةٍ وعافيةٍ وأمنٍ ودعةٍ حتى يتركوا ما تعودوه واتصفوا به من عمل صالحٍ وخلق قويم متجهين إلى أضداها ؛ لأنهم بذلك قد أهملوا الفطرة التى فطر الله الناس عليها ؛ وحينئذ يستحقون الحرمان من النعمة وقد يضم إليه إنزال العذاب بهم إن عظمت ذنوبهم وقد يصاب به الصالحون الذين يعيشون بينهم ؛ وذلك على سبيل الابتلاء لا على سبيل العقاب . كما قال الرسول ـ صلَّى الله عليه وسلم ـ ردًّا على من سأله . « أَنَهْلِكُ وفينا الصالحون ؟ قال : نعم . إذا كَثُرَ الخبثُ[1] » .

وقد يشتركون فى استحقاق العقوبة ، لتراخيهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، قال ـ صلَّى الله عليه وسلَّم ـ : « إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله بعقاب[2] » . ويصح أن يكون المعنى : إن الله لايغير ما بقوم من العقاب والبلاء حتى يغيروا ما بأنفسهم من المعاصى ، ليكون أهلا لعفوه ورحمته .

(وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا) :

أى وإذا شاء الله بقوم بلاءً من مرض أو فقر أو هزيمة أو عذاب أو غير ذلك مما يسوءُ ويؤلم .

(فَلَا مَرَدَّ لَهُ) :

أى فلا دافع لبلائه على اختلاف أنواعه ، وقيل إذا أراد الله بقوم سوءًا أعمى أبصارهم وبصائرهم فاختاروا ما فيه هلاكهم ، وعملوه بأنفسهم فيستحيل لذلك رده عنهم .

---

(١) الخبث : الفسق والفجور .

(٢) معنى ذلك أن المصائب قد تنزل بشؤم ذنوب الآخرين .

(وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ) :

أى ليس لهم ملجأ غيره يقيهم من أخذ الله لهم ويتولى أمورهم فيمنعهم ويدفع عنهم السوء الذى ينزله بهم ، بسبب تغيير ما بأنفسهم ، وفى هذا دلالة قاطعة على أن تخلف مراد الله محال ، وإيذان بأنهم بسبب إنكارهم البعث واستعجال السيئة واقتراح الآية ، قد استحقوا العذاب الشديد ، والعقاب الأليم الذى لا يستطيع أحد دفعه عنهم ، إذا أراده الله بهم .

(هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾)

المفردات :

(يُجَادِلُونَ) : مفاعلة من الجدل بالتحريك وهو المناقشة والمخاصمة .

(المِحَالِ) : بكسر الميم ؛ الكيد والمكر ، والمماحلة المكايدة ، ويستعمل فى الحيلة والقوة والجدال ، يقال : ماحل عن رأيه جادل ، والمِحَالُ من الله معناه التدبير بالحق كما قاله النحاس .

التفسير

١٢ - (هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا) :

فى هذه الآية الكريمة بيان لبعض الظواهر الكونية التى تنطق بكمال قدرته تعالى ، وتبرز للحس عظيم صُنْعِهِ ، فقد جاء فيها أنه تعالى يرينا البرق لإخافتنا من آثاره التى قد

تتمثل فى صواعق حارقة ، وبرق قوى يكاد عند إنبعاثه يذهب بالأبصار ، ومطر غزير يشق على المسافر ويؤذيه ،وقد ينفر منه المقيم ولا يبتغيه ، كما يرينا البرق أيضا لإطماع عباده فى غيث نافع يغيث الزرع ويُدِرُّ الضرع ، وينشر الخصب والرخاء ، قال الحسن : خوفا من صواعق البرق وطمعا فى غيثه المزيل للقحط . وقال قتادة : خوفا للمسافر يخاف مشقته وأذاه ، وطمعا للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع فى رزق الله .

(وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ) :

أى السحب الممتلئة بالمطر . لذلك يعم نفعها ويعظم أثرها ، والثقال جمع ثقيلة لكثرة ما تحمل من ماء المطر .

١٣ - (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ . . . .) :

أى أن الرعد خاضع لله خضوعا تاما شأنه شأن جميع الكائنات فالتسبيح منه مجاز عن الخضوع ،ويجوز أن يكون تسبيحه تسبيحا مقاليا ولذا كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد يقول:« سبحان من يسبح الرعد بحمده »[1] . وإسناد يسبح إلى مضاف محذوف كما يقول بعض المفسرين والتقدير ويسبح ملك الرعد ، مخالف لظاهر النص الذى ينطق بأن الرعد هو الذى يسبح تسبيحا مجازيا أوحقيقيا[2] كما تقدم .

وللملائكة كذلك تسبيح وتنزيه إذ هم ملأ سماوى لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ينبئ بذلك قوله تعالى :

(وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ) : أى وتسبح الملائكة من هيبته تعالى وإجلاله .

(وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ) :

أى أن الله سبحانه وتعالى ينزل الصواعق[3] فيصيب من يشاء هلاكه من عباده فيهلكه ، وقد تكون مظهرًا من مظاهر قدرته وجبروته وهى فى كلتا الحالتين آية من آيات الله تعالى .

---

(١) أخرجه : ابن جرير عن أبى هريرة

(٢) وليس هذا مستحيلا على الله ، فإن عباده اخترعوا الحاسبات الألكترونية وغيرها وهو الذى أقدرهم على ذلك ، وهو الذى سخّر الجبال مع داود يسبحن بالعشى والإشراق ، وجعل الطير تؤوب وتسبح معه .

(٣) مرّ بيان الصواعق فى تفسير الآية ١٩ من البقرة ، فارجع إليه .

ولما نعى الله على المشركين عنادهم فى اقتراح الآيات وإنكارهم كون الذى جاء به الرسول من جنس الآيات ، ولم يعتبروا بما شاهدوا من ظواهر هى آيات على قدرة الله . عقب ذلك ببيان طبيعتهم تسلية لرسوله فقال سبحانه :

(وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللهِ) :

أى لاتحزن لما ترى منهم فى شأنك . فهم مع أمارات القدرة العظيمة ،ودلائل التوحيد الباهرة . يجادلون فى الله بادعاء الشركاء وإثبات الأولاد له تعالى ، وإنكار البعث ، ويلحون فى استعجال العذاب ، ومع سلطانه القاهر يمعنون فى العناد والمكابرة .

(وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) :

أى أنه سبحانه شديد القوة على أعدائه يأخذهم أخذ عزيز مقتدر فيصيبُ مِنْهُم من يشاءُ وفق إرادته . وقال الحسن شديد الإهلاك بالمحل وهو القحط .

(لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾)

المفردات :

(كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ) : كمن مدهما مبسوطتين . (لِيَبْلُغَ فَاهُ) : ليصل إلى فمه .

التفسير

١٤ـ(لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَايَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَىْءٍ) الآية .

أى أن دعوة الحق تختص به تعالى ، أمَّا دعوة غيره كالأصنام والكواكب ، فليست دعوة حق ، بل هى دعوة باطل ، ولهذا فإنه تعالى : يجيب دعاء من دعاه ، فهو أهل

للإجابة كما هو أهل للدعاء . أما الذين يدعونهم من دونه من الشركاء ، فإنهم لايجيبون دعاء من دعاهم بشىء فهم ليسوا أهلاً للإجابة ، كما أنهم ليسوا أهلا للدعاء .

وكيف يستجيبُون لهم وهم صمّ بكم عُمىٌ فلايسمعون ولاينطقون ولايبصرون ، وكل من يتوقع من هذه الأَصنام الاستجابة وتحقيق أى أمل يرجوه ماهو إلا (كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ) : فكما أن من بسط كفيه إلى الماء يدعوه أن يرتفع إلى فمِهِ فلا يستجيب له فكذلك من بسط كفيه إلى الأَصنام يدعوها لتحقيق أمل له لاتستجيب دعاءه .

(وَمَا هُو بِبَالِغِهِ) : أى لايصل الماءُ إلى فمه أبدا إن دعاه وبسط كفيه إليه ، لأَنه جماد لايشعر بظَمئه ، ولا بِبَسْطِ الكفين إليه وهو يدعوه أن يصل إلى فمه ، ولا يستطيع بنفسه سلوك السبيل إليه ، فكذلك الآلهة لأَنها لاتملك لنفسها نفعا ولا ضرًّا ، فإنها عاجزة فكيف تملك الاستجابة للذين يدعونها ، ولذلك كان دعاؤهم لها كما يقول جل شأْنه :

(وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِى ضَلَالٍ) :

أى أن دعاءهم إلى ضياع وخسار لأَنها غير أهل للدعاء ولا للإجابة ، فكيف يعبدها المشركون ، وهى غير أهل للدعاء فضلا عن العبادة ، وقد ضرب الله الماءَ مثلا رائعا ليأْس الكافرين من استجابة الأَصنام إليهم ، ويذكر القرطبى فى معناه ثلاثة أوجه :

الأَول : أن الذى يدعو إلَهًا غير الله كالظمآن الذى يدعو الماءَ إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه ، ويشير إليه بيديه فلا يأْتيه أبداً لأَن الماءَ لا يستجيب وما الماءُ ببالغ إليه ، قاله مجاهد .

الثانى : أنه كالظمآن الذى يرى خياله فى الماء وقد بسط كفه فيه ليبلغ فاه وما هو ببالغه لكذب ظنه وفساد توهمه ، قاله ابن عباس .

الثالث : أنه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فلا يجمد فى كفيه شىءٌ منه اهـ .

والوجه الذى ذكرناه أوضح من هذا كله والله تعالى أعلم .

(وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾)

المفـردات :

(يَسْجُدُ) : يخضع وينقاد . (طَوْعًا) : اختياراً .

(وَكَرْهًا) : بفتح الكاف ؛ إكراهًا . وبضمها ؛ مشقة .

(الغُدُوّ) : جمع غداة لمقابلته بالآصال ، وقيل مصدر غدا ، يقال غَدَا غدوًّا بمعنى دخل في الغدوة . والغدوة والغداة من صلاة الفجر إلى طلوع الشمس . (وَالْآصَالِ) : جمع أصيل ، والأَصيل مابين العصر وغروب الشمس.

التفسير

١٥ ـ (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ...) الآية .

أى أن جميع من فيهما من الإنس والجن والملائكة وغيرهم خاضعون لعظمته منقادون لإرادته شاءوا أو أبوا ، يستوى فى ذلك مؤمنهم وكافرهم ، ومن له عقل وإرادة وما لا

عقل له ولا إرادة. والتعبير بِمَنْ وهى للعقلاء لتغليبهم على غيرهم، وجميع هؤلاء يسجدون لله (طَوْعًا وَكَرْهًا): فانقياد المؤمن يقع منه اختياراً طائعا لأنه خاضع لله بظاهره وباطنه وانقياد الكافر يقع منه اضطرارا، فإنه خاضع لله فى تربيتهِ ورزقه، وصحته ومرضه وغير ذلك. فمشيئته تعالى ماضية فيه. (وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ): أى تنقاد لله كذلك ظلال من له ظل منهم فهى تحت سلطانه ومشيئته فى الامتداد والتقلص والرجوع والزوال. خاضعة له منقادة لإرادته بالغدو والآصال. لأن ظلال الأشياء تظهر فى هذين الوقتين وتتضح حركتها زيادة ونقصا وميلا من ناحية إلى أخرى بتصريف الله. إذ الحركة والسكون بيده تعالى، والمتحرك والساكن فى قبضته.

١٦ - (قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ ...) الآية.

أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلوات الله عليه أن يبين للمشركين طريق الهداية بمحاورتهم سائلًا ومجيبًا، ليلفت أنظارهم إلى البحث والتأمل فقال له: (قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ): أى قل يا محمد لأولئك الكفار الذين اتخذوا الشركاء لله والأولياء من دونه: مَن ربُّ هذه الأجرام العظيمة التى ترونها فيبهركم ما فيها من دقة وكمال وجمال؟ ثم أمره أن يذكر لهم الجواب فقال: (قُلِ اللهُ): للإيذان بأنه جواب متعين إذْ لا جواب سواه، ولهذا فالسائل والمجيب فى تقريره سواءٌ: وَفِى ذلك إشعار لهم بمخالفتهم لما علموه مما لا يصح إخفاؤه بدليل قوله تعالى: «وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ». ثم أمره أن يبين لهم خطأهم الفاضح فيما سلكوه بجانبه تعالى فقال:

(قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَايَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا):

أى قل لهم تبكيتًا وتقريعًا أبعد أن علمتم أنه رب السموات والأرض الذى ينقاد لسلطانه وتقديره كل من فيهما، أبعد أن علمتم هذا عميت قلوبكم فاتخذتم من دونه تعالى

أولياء عاجزين لا يملكون لأنفسهم نفعًا يأتون به أو ضررًا يدفعونه ، فهم عن جلب النفع ودفع الضر عن غيرهم أضعف وأعجز .

ثم ضرب لهم مثلا يصور آراءهم الفاسدة بصورة المُحَس فقال جل شأنه :

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ) : أى قل لهم مُقَرِّعًا هل يستوى الأعمى وهو مثل المشرك الجاهل بالعبادة ومستحقها ، والبصير وهو مثل الموحد العالم بذلك ، والمراد لا يستوى المؤمن والكافر .

(أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ) : ويراد من الظلمات الكفر والضلال ومن النور الإيمان والتوحيد أى هما لا يستويان .

ثم إنه تعالى أكد ما أشارت إليه الآية فيما سبق من تخطئة المشركين فقال :

(أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ) : أى بل أجعلوا لله شركاء خلقوا مثل خلقه فتشابه الخلق عليهم فلا يميزون بين خلق الله وخلق آلهتهم ، فاستحقوا بذلك العبادة عندهم كما استحقها سبحانه ليكون ذلك منشأ خطئهم . ولكن الأمر ليس كذلك لأنهم جعلوا له شركاء عاجزين لا يقدرون على نفع أنفسهم أو دفع الضر عنها ، فكيف يقدرون على ما يقدر عليه الخالق من الإيجاد والإبداع ؟

وإجمال المعنى أن الله تعالى نعى عليهم اتخاذهم الشركاء ، ووصفها بأنها عاجزة ذليلة لاتملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا ، وأنها ليس لها شىء من الخلق ، وعقب ذلك بأمر نبيه أن يخبرهم أنه تعالى هو الخالق وحده ، فقال :

(قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) : أى قل يا محمد ؛ الله خالق كل شىء ؛ فلهذا لزم أن تعبدوه وحده لأنه لا خالق غيره .

(وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ) : وهو سبحانه المختص بالألوهية المنفرد بالربوبية . القهار لكل متكبر ، الغالب لما سواه ، فكيف يتوهم أن يكون المغلوب شريكًا له ، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا .

(أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾)

المفردات :

(أَوْدِيَةٌ) : جمع واد ؛ وهو كل مُنْفَرَجٍ بين جبال أو آكام . ويكون مَنْفَذًا للسيل.

(الزَّبَدُ) : ما يعلو وجه الماء كالرغوة ، (رَابِيًا) : مرتفعًا فوق الماء .

(الْحِلْيَة) : ما يتخذ للزينة من الذهب والفضة وغيرهما .

(مَتَاعٍ) : الْمَتَاع كل ما ينتفع به من الطعام والثياب وأثاث البيت . ويراد بالمتاع هنا أثاث البيت المتخذ من نحو الحديد والنحاس والرصاص .

(جُفَاءً) : مرميًّا به ؛ يقال : جفأ الماءُ بالزبد إذا قذفه ورمى به ، وجَفَأَتِ القِدْرُ : رمت بزبدها عند الغليان . (اسْتَجَابُوا) : أجابُوا بصدق .

(الْحُسْنَى) : مُؤَنث الأحسن ، والمراد بها المثوبة الحسنى وهى الجنة وما فيها من نعيم مقيم .

التفسير

١٧ – (أَنزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ...) الآية .

ضرب الله جل ثناؤه بهذه الآية الكريمة مثلا للحق فى عموم فائدته وعظيم بركته ، بالماء الصافى الذى أنزله الله من السماء فسالت به أودية بين الجبال والآكام بالقدر الذى عينه الله تعالى واقتضته حكمته لنَفْع الناس ؛ يسيل مندفعاً فى مجاريه حتى يصل إلى غايته ، وجعل الباطل فى اضمحلاله وزواله كالزبد وهو الرغوة التى تعلو سطح الماء ثم تكون نهايته أنْ يضمحل ويذهب ، ويشير جل شأْنه إلى مثل ثانٍ للحق والباطل بقوله :

(وَمِمَّا يُوقِدُون عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ) : فى هذا المثل جعل الله الحق كالمعادن التى يوقد عليها فى النَّار لصهرها وإذابتها لتصفيتها وتَنْقِيتها من كل الشوائب تيسيرًا للانتفاع بها فى اتخاذ الحلى من الذهب والفضة ونحوهما ، وفى أثناء صهر هذه المعادن يعلو فوقها زبد كزبد الماء فى كونه رابيا فوقه ولا ينتفع به ، وقد جعله الله مثلا للباطل فى الفلزات المذابة ، كما جعله مثلا له فى الماء ، فالزبد فى كليهما يشير إلى الباطل .

(كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحقَّ والْبَاطِلَ) : أى مثل ذلك يضرب الله للناس مثل الحق ومثل الباطل ، ثم بَيّن الله ذهاب الباطل وثبات الحق فقال :

(فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الْأَرْضِ) :

أى أن الباطل الشبيه بالزبد مهما علا وظهر فإن مآله إلى اضمحلال وفناء حيث يرمى به وينبذ كما يذهب الزبد جفاءً .

والجُفاءُ ما أجفأه الوادى أى رمى به وما أجفأته القدر إذا غلت أى رمت به وصبته وأما ماينفع الناس من الماء الخالص الصافى ، وما خلص من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص وسائر المعادن فيمكث فى الأرض ، فالماء يبقى بعضه فوق سطحها لينتفع به ويذهب بعضه الآخر إلى جوف الأرض ، لينتفع به فى العيون والآبار ، وأما المعادن فيصاغ من بعضها أنواع الحلى ويؤخذ من بعضها الأوانى وأصناف الآلات والأدوات ، فهذا هو المقصود من مكثها فى الأرض .

(كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) :

أى كهذين المثلين فى الوضوح والجلاء يضرب الله الأمثال للناس دائما ليبصرهم بالخير والشر ، إظهارا لكمال العناية بالتوجيه والإرشاد . ولما بين الله شأن كل من الحق والباطل شرع يبين حال أهل كل منهما فقال سبحانه :

١٨ – (لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ....) الآية .

أى للذين استجابوا لله فأطاعوه ، وأطاعوا رسوله ، إذا دعاهم إلى الحق بطرق الدعوة المتنوعة ومن بينها ضرب الأمثال الذى يوصل المعانى إلى القلوب فى يسر وسهولة ، لما له من تأثير بليغ فى النفوس لتصويره المعقول بصورة المحسوس ، لهؤلاء المهتدين المثوبة الحسنى وهى الجنة كما قال قتادة وغيره . وعن مجاهد أنها الحياة الحسنى التى لايشوبها كدر أصلا ، أو هى النصر فى الدنيا والنعيم المقيم غداً .

(والَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّافِى الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ) :

أى أن الذين عاندوا وأعرضوا عن الحق مع وضوحه وجلائه لو أنهم يملكون مافى الأرض جميعا من أصناف الأموال المتنوعة ، ويملكون مثل ذلك معه ، لقدموه افتداء لأنفسهم ، ليتخلصوا مما هم فيه من عذاب ونكال ، وفيه من تهويل ماينزل بهم مالايحيط به بيان .

(أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ) : فلا تقبل منهم حسنة ، ولا يتجاوز لهم عن سيئة ، ويحاسب كل منهم على ذنبه كله لايترك منه شىء .

(وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ) : أى أن مقامهم ومسكنهم جهنم يتخذون منها فراشا لهم وإنه لبئس الفراش الذى أعدوه لأنفسهم ، يسيل عليه ماينساب من جلودهم مما يصْلَونه من نارها وكلما نضجت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها ليذوقوا أشد العذاب وأقساه .




Bibliotheca Alexandrina
03991O5